لعنة الألفية

لماذا يفشل النشاط التغييري

طوني صفبيني

لعنة الألفية

لماذا يفشل النشاط التغييري

تأليف

طوني صغبيني

منشورات مدونة نينار

www.ninars.com

بيروت

2014

الكتاب متوافر تحت رخصة المشاع الإبداعي 2014

بعض الحقوق محفوظة

حقوق النشر واستعمال النصوص مجّانية لكن يتوجب نسبة المقالات إلى "مدوّنة نينار – طوني صغبيني"

يحظّر القيام بأي تعديل أو تحوير أو تغيير في النص

يحظّر استخدام العمل لأي غايات تجارية

يمكن الاتصال بالمؤلف على البريد التالي

tsaghbiny[at]gmail[dot]com

المحتوى

- شكر وتقديم

- I: ما الذي حصل للنشاط التغييري ؟

- II: ملك من دون مملكة: التكيتيكات العقيمة للنشاط السياسي

- III: النضال على كوكب آخر: مشكلة محوريّة الانترنت في النشاط السياسي

- IV: من المناضلين إلى الموظفّين: ظاهرة النشاط المحترف

- V: أنكون كالماء أم كالصخر ؟ معضلة اللاتنظيم في النشاط التغييري

- VI: انتظار القيامة الجماهيرية ومعضلة الحلول الفرديّة

- VII: العالم من خلال نافذة صغيرة: مشكلة غياب المقاربات المنهجيّة الكبرى

- VIII: أزهار أم بنادق ؟ نحو مفهوم أبعد من ثنائيّة العنف واللاعنف

- IX: العالم لم يُصنع لنا: لماذا البعد الروحي أساسي للتغيير الشامل

- X: نحو ثقافة سياسيّة جديدة للقرن الحادي والعشرين

شكر وتقديم

هذا الكتاب بدأ كرسالة قصيرة لصديقتي سارة يوركيفيتش رداً على سؤالها حول تأثير الإعلام الاجتماعي على مشهد النشاط السياسي في لبنان، كجزء من أطروحتها للدكتوراه في جامعة أوسلو حول هذا الموضوع. الردّ الذي تلى تطوّر فيما بعد إلى معالجة مطوّلة لنقاط الخلل في الحراك التغييري المعاصر. حين انتهيت من الكتابة، ما اعتقدت أنه سيكون مقالة رأي طويلة جداً انتهى ككتيّب صغير يعالج عن قرب جوهر الثقافة السياسيّة السائدة لدى أبناء جيلي.

ما أنتم على وشك قراءته، عزيزتي القارئة وعزيزي القارىء، هو ليس دراسة أكاديميّة ولا معالجة شاملة لكلّ أوجه النضال التغييري في أيامنا. هذا الكتيب هو بكل بساطة تحليل غير حيادي للاتجاهات والنماذج السائدة في الثقافة السياسيّة لدى جيل الشباب والتي تشلّ فعاليّة حركات التغيير السياسي والاجتماعي حول العالم.

البعض سيجد أن النقاط المذكورة هنا تتشابه إلى حدّ كبير مع تجاربهم الشخصيّة، فيما قد يشعر البعض الآخر بالعكس. في الحالتين، نحن لا نقدّم رأينا في هذه الصفحات المتواضعة على أنه الطريقة الوحيدة الصحيحة لما يجب أن يكون عليه النشاط السياسي، بل العكس. هذا الكتاب هو دعوة لتجاوز القيود التي تحكم أسلوب قيادتنا لصراعاتنا السياسية والاجتماعية والخروج بحركات استراتيجيّة فعّالية تستطيع حقاً أن ترسم ملامح المستقبل. الوقت ينفذ منّا، ونحن نخسر الكثير من المعارك على معظم الجبهات. أقلّ ما يمكن فعله هو محاولة تصحيح الوضع عبر إعادة النظر ببعض أفكارنا، بأسلوب عملنا، وأهدافنا حتى.

كما كل الأعمال، كتابة ونشر هذا الكتيّب كانت ستكون مستحيلة من دون مساهمة العديد من الناس. أذكر بشكل خاص شريكتي وحبيبتي آلاء حميدي لآرائها القيّمة ودعمها في كافة مراحل الكتابة والنشر، لصديقتي ميسان معروف التي قامت بتحرير والتدقيق اللغوي للنسخة الإنكليزية، ولشريكي في المؤامرات هاني نعيم لمراجعة المخطوطة الأخيرة وإعطاء ملاحظات مفيدة على المحتوى، ولصديقي سامر اللاذقاني لكونه مصمّم رائع تولّى التصفيف وكافة الأمور البصرية الأخرى كتصميم الغلاف، بالإضافة إلى العديد من الناشطين والمؤلفين الذين ساهموا في ولادة هذا الكتيّب بطريقة أو بأخرى. كلمة "شكراً" لجميعكم هي غير كافية أبداً للتعبير عن عرفاني بالجميل...

I

ما الذي حصل للنشاط التغييري؟

هنالك خلل في الطريقة التي نقود بها نشاطنا التغييري؛ جميعنا يعرف ذلك ضمنياً، سواء كنّا في بيروت، أثينا، أوكلاند، برشلونة، أوتار برادش، أو هونغ كونغ.

الجيل الشاب الذي انخرط في الصراعات السياسيّة منذ العام 2000 حتى اليوم أتى خلال حقبة من الفراغ السياسي الهائل. أحياناً يبدو كأن أبناء جيلي أتوا لإصلاح العالم في زمن تحوّلت فيه الأيدولوجيات، العمل السياسي، والأحلام والرؤى السياسيّة إلى شبح من الماضي. الثقافة السياسيّة لزماننا الحالي هي ثقافة النهايات: نهاية التاريخ، نهاية الفلسفة، نهاية الأيدولوجية، نهاية السياسة... إنها ثقافة الفراغ. فراغ الألفية يقف بتعارض واضح مع الحقبات الماضية؛ مع الحركات الثورة والطلابية والحقوق المدنية في الستينيات، مع الحركات النسوية والراديكالية والثورية في السبعينيات، مع جبهات التحرير الوطني في الثمانينيات، ومع حركات حقوق الإنسان ومناهضة العولمة والإيكولوجيا الجذرية في التسعينيات.

صحيح أن عالم الحراك التغييري شهد العديد من الحركات المهمّة خلال العقد الماضي كالانتفاضة الفلسطينية في العام 2000، حركة مناهضة الحرب الأميركية في العام 2003، حملة مكافحة التغيّر المناخي في العام 2009، والانتفاضات العربية وحركة احتلوا وال ستريت والحراك العالمي في العام 2011. الفارق هو أن معظم هذه الحراكات كانت تقوم على ردّات فعل، قصيرة العمر، وغالباً ما فشلت في تحقيق أهدافها. الحراكات السياسية والاجتماعية منذ العام 2000 نادراً ما امتلكت رؤى واضحة أو كانت منظّمة من قبل حركات سياسيّة واضحة، نادراً ما امتلكت خطط أو استراتيجيات عمل، ونادراً ما امتلكت الجرأة اللازمة في الصراع.

قد يبدو الحكم قاسياً، لكننا نعتقد أن العديد من حركات التغيير الاجتماعي حول العالم اليوم تفتقد للشجاعة، تطبّق نشاطات من دون استراتيجيات، تقدّم برامج من دون رؤى، وتخوض معاركها من دون روح. المواجهة استُبدلت بـ"التأييد والضغط"، النشاط المباشر استُبدل بـ"بناء الوعي"، الفعاليّة استُبدلت بالهوس بالاهتمام الإعلامي، والمناضلون والمتطوّعون استبدلوا بموظّفين وناشطين محترفين، والنشاط التغييري نفسه استبدل بالخمول الالكتروني.

في العديد من الدول، الحركات والنشاطات التغيرية تبدو كأنها مسرحيّة ساخرة مما كان عليه هذا النشاط في العقود الماضية. ماذا حصل لنا؟ لماذا في عصر يستحوذ النشاط السياسي فيه على أكبر تغطية واهتمام إعلامي، معظم، أن لم يكن كل نشاطنا التغييري، يفشل؟

لا يوجد إجابة سهلة لهذا السؤال. نحن نحتاج للكثير من الدراسات والبحوث في علوم الاجتماع، التاريخ، الاقتصاد، والسياسة لكي نفهم كل العوامل التي كسرت الحركات التغييرية في أيامنا. لكن بما أنّ هذه الدراسات غير متوافرة في الوقت الحالي، نستطيع بدلاً عن ذلك أن نحاول تحديد مجموعة من الأفكار الخطيرة والضارّة المعتنقة بشكل كبير اليوم من قبل معظم الحركات والناشطين في أيامنا والتي تعطّل فعاليّتهم بشكل شبه تام.

هذه الأفكار المهيمنة تثقل حركة التغيير، تحرمها من فعاليّتها، وتؤثّر على كافة أوجه نشاطها: هي تؤثر على استراتيجياتنا، تكتيكاتنا، البنى التنظيمية في حركاتنا، ورؤيتنا. هذه الأفكار تهيمن بنسب متفاوتة على العديد من الحركات، وهي محطّ إجماع واسع في أوساط الناشطين، وخصوصاً في أوساط الحركات التي ظهرت في الألفية الجديدة. لذلك قرّرنا أن نطلق على هذه المجموعة من الأفكار اسم "لعنة الألفيّة".

لعنة الألفيّة ليست تعويذة فرعونيّة قديمة أو عنوان فيلم تشويق، بل هي ثقافة سياسية، مجموعة من الأفكار والافتراضات والاستراتيجيات التي تقود وترسم شكل النشاط التغييري في العديد من الحركات، المنظّمات، والناشطين الأفراد. لعنة الألفيّة تشلّ الكثير من الحركات السائدة، وتلقي بظلالها على معظم الحركات التي تنشأ مؤخراً بكثرة.

على متن هذا الكتاب، سنسمّي الحركات التي تتبنّى هذه الأفكار بـ"حركات الألفيّة"، لتمييزها عن الحركات الاجتماعيّة الأخرى. هذا لا يعني أنه هنالك حدود واضحة بين حركات الألفيّة وغيرها بما أن الثقافة السياسيّة هي ظاهرة مرنة ومتداخلة، لكننا سنستعمل التعبير لأنه يسهّل علينا الإشارة إلى الحركات والناشطين الذين يمتلكون ثقافة سياسية متشابهة هي التي نتناولها في هذه الصفحات.

الحديث عن لعنة الألفيّة على أنها إحدى الأسباب الرئيسيّة لفشل النشاط التغييري لا يعني أنها السبب الوحيد. الدولة، الشركات، والعديد من قوى الأمر الواقع الماليّة، الاجتماعيّة، الدينية، والسياسيّة، تنتفع من الستاتوكو وتدافع عنه بشراسة كلما شعرت أنه مهدّد بالخطر. رغم ذلك، علينا أن ننظر أولاً إلى الثغرات في عملنا نحن. لا بأس للمقاتل أن يخسر جولة: لكن إن كان يخسر كل الجولات فهذا يعني أنه عليه النظر إلى مشاكله أولاً قبل وضع نفسه على الحلبة مجدداً في مواجهة خصم آخر.

هذا الكتاب هو محاولة لتشخيص وتفكيك لعنة الألفيّة وإلقاء نظرة نقديّة شجاعة على التكتيكات الهزيلة للنشاط السياسي بدءاً من أسلوب الاحتجاج مروراً بمشكلة الانترنت والنشاط المحترف وصولاً إلى أسئلة التنظيم وأسلوب العيش والمقاربات المنهجيّة والعنف واللاعنف ومكانة الروحانيّة في الروح التغييريّة.

قراءة قصيرة ومثيرة، لكن لا تضعوا عنها ستاتوسات على تويتر! حان وقت إيقاف الستاتوسات والبدأ بالمقاومة السياسيّة المنظّمة، هذه هي رسالة الكتاب.

II

ملك من دون مملكة
التكتيكات العقيمة للنشاط السياسي

خلال السنوات الأخيرة، تحوّلت أشكال محدّدة من النشاط السياسي إلى عقيدة وهدف بحد ذاتها، ونحن نقصد تحديداً: تكتيك الاحتجاج، تكتيك التخريب العشوائي، وتكتيك القرصنة الالكترونيّة. هذه التكتيكات تختصر وتعبّر عن ثلاثة أنواع مختلفة من النشاط، أحدها لاعنفي بشكل مطلق، وثانيها محصور بالنشاط الالكتروني، وثالثها يوصف على أنه "عنيف" (رغم واقع أن معظم التخريب العشوائي تستهدف الممتلكات لا الناس).

تقليص أشكال النشاط السياسي إلى هذه الأنواع الثلاثة من التحرّكات لا تقزّم فعاليّة النشاط السياسي فحسب، بل تشير أيضاً إلى مشكلة بنيوية في ذهنيّة النشاط "الألفي" كما سنظهر في الفقرات التالية.

نظرة نقدية حول تكتيك الاحتجاج: لماذا اليافطات والمسيرات وحدها لا تغيّر العالم

بالنسبة للعديد من الحركات حول العالم، الاحتجاج بأشكاله المختلفة – سواء كان بشكله التقليدي كتظاهرة أو مسيرة أو بشكله المعاصر كاعتصام أو مشهد ممسرح في الشارع – أصبح ملك النشاط السياسي من دون منازع.

سمّي أي حركة ناشطة اليوم حول العالم وستجد أن أعلى نقطة في مسيرتها السياسية هي احتجاج ما.

الانتفاضات العربيّة والتظاهرات العارمة التي ابتدأت في العام 2011 جعلت هذا الأمر أسوأ: الجميع يعتقد الآن أن الاحتجاج هو الاداة التي لا تقهر لتحقيق التغيير السياسي. الاحتجاج كان التكتيك الرئيسي الذي اختارته حركة احتلّوا وول ستريت، كما كان الأمر نفسه لحركة إقرار سياسات لمكافحة التغيّر المناخي في العام 2009 (بشكله المسرح). معظم المنظّمات السياسيّة، الاجتماعيّة والبيئية في أوروبا ومنطقة المتوسّط، ومنها المنظّمات الأكثر راديكاليّة، تعتمد أيضاً الاحتجاج كأداتها السياسيّة المفضّلة.

من نافل القول أن مفهوم الاحتجاج بذاته لا يشير إلى نشاط سياسي إيجابي أو سلبي، فهو وسيلة تعتمد في نجاحها على السياق. وهنا لبّ المشكلة: الاحتجاج كتكتيك سياسي يُستعمل من دون أخذ السياق الاجتماعي والسياسي بعين الاعتبار. الظروف التي نتحدّث عنها والتي تؤثر مباشرة على أي نشاط سياسي هي متعدّدة، منها:

- طبيعة القضية.
- الهدف التكتيكي للحركة التي تقوم بالاحتجاج
- عدد الناس الذين يمكن تعبئتهم وتحريكهم لهكذا نشاط.
- طبيعة القوى المنخرطة في الصراع.
- طبيعة وفعاليّة العمل السياسي مع الناس والسلطات في الأيام العادية قبل مرحلة الاحتجاج.
- وأخيراً، النتائج السياسية المحتملة لمختلف أطراف الصراع (السلطة والحركة المعترضة على السواء) التي يمكن تنتج عن هكذا نشاط (مثلاً: هل لدى الحكومة في البلد المعني سجّل يظهر استماعها للاحتجاجات، قمعها لها، أم تجاهلها بشكل عام؟).

Figure 1: بعض احتجاجات مصر تصلح كمثال لنجاح تكتيك الاحتجاج في تحقيق أهدافه السياسية

العامل الأهم هو قدرة منظّمي الاحتجاج على متابعة قضيّتهم والتصعيد إلى أشكال أخرى من النشاط إن كان ذلك ضرورياً، سواء كنا نتحدّث عن القدرة على تحويل القضيّة إلى مادة انتخابيّة أو القيام بتحرّكات أكثر جذريّة وخطورة. في الحالتان، هنالك حاجة واضحة لوجود مجموعات منظّمة أو حركة اجتماعية واسع تستطيع متابعة القضيّة على المدى الطويل بعد فعل الاحتجاج. في ظلّ غياب هكذا منظّمات قادرة على الاستمرار بالتحرّكات بما هو أبعد من حمل يافطة صغيرة في الشارع، لن يكون الاحتجاج سوى ضجّة من دون نتيجة سياسيّة.

المؤلف الأميركي جون مايكل غرير يلاحظ نقطة الضعف هذه في المشهد السياسي الأميركي الشمالي ويقول:

"الأشكال الأكثر شعبية لمحاولة الضغط على النظام السياسي الأميركي تفترض أن السياسيّين سيستمعون إن قام الناس، أو الناشطين الذين يزعمون التحدّث باسمهم، بخلق جلبة كافية. الصعوبة هي أن الناشطين، أو الناس، لا يعطون السياسيين أي سبب لينتبهوا لهم، فهم بكل بساطة يقومون بالضجيج، والسياسيّون اصبحوا واثقين بشكل متزايد أنه يمكن لهم تجاهل الضجيج بحصانة كاملة"[1].

يضيف غرير:

"هذه الأشكال التقليدية من النشاط (الاحتجاجات، المسيرات، حملات التواقيع والرسائل...ألخ) تعمل فقط إن كان صنّاع القرار في السلطة لديهم سبب للاعتقاد بأن الناشطين يمكنهم متابعة حملتهم عبر تحرّكات أكثر فعاليّة، كتحدّي السلطة في الانتخابات المقبلة إن تم تجاهل مطالبهم".

الاحتجاج قد يكون قادراً على إلقاء الضوء على قضايا مهمّة، لكنّه لا يستطيع التأثير على السياسات العامّة من دون القدرة على المتابعة والتصعيد. بكلمات الباحث الهندي أجاي شاه: "المحتجّ يقول أنه غاضب لأن السيارة لا تعمل، لكن الأمر يستوجب مهندس ماهر لفهم المشكلة في السيارة وإصلاحها"[2].

شاه يعطي أمثلة كثيرة من المشهد السياسي الهندي حيث فشل تكتيك الاحتجاج بتحقيق نتائج مهمّة بسبب غياب المتابعة والتصعيد. من هذه الأمثلة حركة الدكتور كيسان هزاري الذي استفاد من السخط الشعبي على الفساد ووعد بالقضاء على الفساد لكن حركته لم تستطع تحقيق أي نتيجة. "لقد تمّ صرف الكثير من الطاقة، وولّد ذلك الكثير من التغطية التلفزيونيّة، لكنه لم يحقّق شيئاً"، يشرح شاه عن التحرّك.

مثال آخر حصل في العام 2012 حين كان هنالك احتجاج عام في الهند بسبب تردّي نوعيّة مياه الشرب بسبب استخدام مبيدات الحشرات بكثافة. رغم الاحتجاجات العديدة والحاشدة، تمّت إضاعة الفرصة مرّة أخرى، لأنه، وبحسب شاه، "لم يكن لدينا صانعو السياسات والسياسيّين الذين يستطيعون التفكير بإصلاح وضع المياه والصحّة والاستفادة من الغضب لفرض برنامج إصلاحي حقيقي. وبذلك، فشلنا في هذه المرحلة بإزالة مبيدات الحشرات من مياه الشرب في الهند".

هنالك الكثير من الأمثلة الأخرى من بلدان أخرى؛ بحث صغير على الانترنت كافٍ للتعرّف على الآلاف من التظاهرات والاحتجاجات كلّ عام التي لا تحقّق شيئاً على الإطلاق. معظم حركات الألفية لا تشير للأسف سوى للاحتجاجات النادرة التي نجحت في تحقيق مطالبها وتعتبرها أمثلة على أن تكتيك الاحتجاج لا يقهر. بدل دراسة السياق الذي يؤدّي إلى نجاح بضعة احتجاجات فقط من بين آلاف واستخلاص الدروس منها، تقفز معظم حركات الألفية الى استخدام الاحتجاج متوقّعة نجاحاً فورياً من دون أي اعتبار للظروف المحيطة به.

مع الوقت، تحوّل الموضوع إلى مشكلة حقيقيّة في مشهد النشاط اللاعنفي وهي تسييل ذخر النشاط السياسي إلى شكل واحد وحصري من التحرّكات: الاحتجاج – واختيار هذا التكتيك مراراً وتكراراً بغضّ النظر عن فعاليّته في السياق الذي يُنفّذ به.

كما ذكرنا، مؤيّدوا الاحتجاج غالباً ما يختارون أمثلة تاريخية أو حديثة (كانتفاضات تونس ومصر في العام 2011) للإشارة إلى أن الاحتجاج هو الشكل الأكثر فعاليّة، وحين تفشل احتجاجاتهم بتحقيق أهدافها المنشودة، يعتقدون بأنّ الحلّ هو في القيام بالمزيد من الاحتجاجات. السؤال لا يتمحور ولا مرّة حول ما هو نوع التحرّك أو النشاط الأكثر فعاليّة أو السياق الذي يحصل فيه الاحتجاج، فالاحتجاج كملك للنشاط السياسي لا يتم التشكيك به أبداً. السؤال دائماً هو حول كمّية الاحتجاجات التي يجب القيام بها. وحين يقوم أحدهم – حتى ولو كان من صلب حركة الاحتجاج – بالسؤال حول فعاليّة القيام باحتجاج آخر، لا يُواجه سوى بالتشكيك والغضب، كأنّ تكتيك الاحتجاج هو شكل مقدّس من النشاط. "الشوارع تنادي" هو شعار يُستعمل عملياً لإسكات الأصوات المعترضة على هذا التكتيك المهيمن.

فلنأخذ حركة مكافحة التغيّر المناخي مثلاً. منذ بداية التسعينات، كانت هذه الحركة الواسعة والمتنوّعة تقوم بلا كلل ببناء الوعي، إنتاج الأفلام والوثائقيات ونشر الكتب العلميّة، دفع المشاهير لتبنّي القضية والدفاع عنها، الحصول على دعم معظم مؤسسات المجتمع العلمي في كافة أنحاء العالم، الضغط على مراكز القرار، التحالف مع العديد من الشركات العالميّة وبعض الحكومات، والقيام باحتجاج تلو الاحتجاج. حين تمّ توقيع بروتوكول كيوتو للحدّ من الاحتباس الحراري في العام 1997، كانت حركة مكافحة التغيّر المناخي لا تزال طفلاً صغيراً. معاهدة كيوتو انقضت مهلتها في العام 2012، ورغم النشاط المكثّف لحركة تغيّر المناخ التي نضجت كثيراً منذ العام 1997، لم تحقّق المفاوضات حول معاهدة جديدة أي نتيجة.

ابتداءً من العام 2007، بنت حركة مكافحة التغيّر المناخي تحالف واسع ضمّ مئات المنظّمات البيئية التي وضعت كل مواردها في خدمة قضيّة واحدة. ما التكتيك الذي اختارته هذه الحركة كنوعها المفضّل للنشاط السياسي؟ لقد حزرتم: الاحتجاج، وتحديداً الشكل الممسرح الدرامي من الاحتجاج – الـ Flash mob.

Figure 1: من نشاطات منظّمة 350.org البيئية، في هوليود

عشية مفاوضات كوبنهاغن الدولية لإقرار معاهدة جديدة حول التغيّر المناخي في العام 2009، قامت الحركة البيئية بتنظيم 5200 نشاط احتجاجي في وقت واحد في أكثر من 181 دولة في ما وُصف بأنه "أكبر يوم للنشاط السياسي المتزامن في تاريخ الكوكب"[3]. المشهد نفسه تكرّر في العام 2010 مع أكثر من 7000 احتجاج صغير في يوم واحد، ومجدداً في عامي 2011 و2012. خلال عمليّة كتابة هذا النصّ، كان تحالف 350.org يعلن تخطيطه للقيام بالأمر نفسه خلال عامي 2013 و2014 تحت عنوان "غلوبال باور شيفت" (التغيير العالمي للقدرة – السلطة). النشاطات المذكورة – الاحتجاج الممسرح، شملت رسم يافطات كبيرة يمكن قراءتها من الجوّ، رفع يافطات قرب معالم جغرافية وأثرية شهيرة، الغناء، توقيع العرائض، فتح اليافطات والسخرية من المندوبين الحكوميين في المؤتمرات الدوليّة حول تغيّر المناخ، الاجتماع بالمندوبين الحكوميين على هامش المؤتمرات الدوليّة، وتسليم رسائل مكتوبة للرؤساء والحكومات. ما الذي حقّقته كل هذه التحرّكات التي كلّفت ملايين الدولارات – والتي بالمناسبة يتم تنظيمها من موظّفون متفرّغون تصل رواتبهم إلى ثلاثون ألف دولار أميركي في الشهر؟

لا شيء.

التشبّث بالاحتجاج كمحور وحيد للنشاط السياسي لديه الكثير من النتائج السلبيّة على حركة التغيير على المدى البعيد. المنظّمات التي تركّز على الاحتجاج تهمل عادة العمل البنائي الطويل الأمد على الأرض مع الناس. نحن نعني هنا العمل الذي يتمحور حول التثقيف، التعبئة، التنظيم، والدعم وبناء الشبكات الاجتماعية والسياسية الضرورية في أي مواجهات سياسيّة مستقبليّة مع السلطات أو قوى الأمر الواقع. المدوّن اللاسلطوي كولين أو يشير إلى هذه الظاهرة وما يقوله ينطبق على العديد من المجموعات في كافة أنحاء العالم، لا فقط على الولايات المتحدة. يقول:

"الناشطون في الولايات المتحدة يرون الحركات الاحتجاجية في مصر، اضرابات الطلاب في كيبيك، واستيلاء العمّال على المصانع في الأرجنتين ويستنتجون بأنه علينا القيام فوراً بهذا النوع من التحرّكات. ويقفزون بذلك إلى تنظيم احتلال مساحة عامة لأن هذا هو الهدف بحد ذاته ولأن الأمر برمّته يبدو مثيراً. لكن، إن أخذنا خطوة إلى الوراء ونظرنا إلى الحركات التي تلهمنا، سندرك بسرعة بأنهم كانوا قادرين على القيام بتلك التحرّكات الجماهيرية بعد سنوات طويلة من العمل على تطوير المنظّمات ونشر الوعي"[4].

العمل الذي يصفه كولن هو أساس أي تغيير سياسي. رغم ذلك، تصرّ حركات الألفية وناشطوها على استبدال ذلك النوع من العمل بساعتين من الأدرينالين العالي في احتجاج يعطينا شعور بالنشوة من دون أن يحقّق شيئاً. المشكلة مع معتنقي أيدولوجية الاحتجاج أنهم يهملون هذا النوع من العمل المضني الضروري الذي تقوم به عادة حركات منظّمة لفترة طويلة قد تكون أشهر أو حتى سنوات قبل القيام باحتجاج مؤثر. الاحتجاجات الناجحة لا تكون أبداً نتيجة بروز مفاجيء لهاشتاغ # معيّن على تويتر.

حين استعملت حركة الحقوق المدنية في الستينيات في الولايات المتحدة تكتيك الاحتجاج لتغيير الأمر الواقع بنجاح، كان نجاحهم نتيجة سنوات طويلة من البناء والتنظيم والتحوّلات الثقافية والعمل السياسي اليومي. تحرّكاتهم كانت أبعد ما يكون عن المسيرات السلميّة الفولكلوريّة التي نرى الكثير منها اليوم، وقد واجهوا سلطة محرجة على الجبهة الداخلية ومنهكة على الجبهة الخارجية ومستعدّة للتفاوض على مطالبهم. الاحتجاجات حصلت في فترة كانت فيها العنصرية تحت إدانة متصاعدة من قبل الثقافة الأميركيّة الأوسع.

ثمن رفض مطالب الحركة المدنية آنذاك بقيادة مارتن لوثر كينغ كان يعني فتح الباب أمام تفتّت البلد وصعود المليشيات الشعبيّة المسلّحة في صفوف السود التي تعتمد أساليب أكثر راديكاليّة كحركة مالكوم أكس والفهود السود. قصّة نجاح الحركة المدنيّة في الولايات المتحدة ليس ببساطة أنهم "قاموا بمسيرة مرّة وحصلوا على حقوقهم في اليوم التالي"، بل هي مرتبطة بسياق اجتماعي سياسي معقّد أتاح لتكتيك الاحتجاج النجاح.

الأمر نفسه ينطبق على التحركات المصرية والتونسيّة في العام 2011 وما بعده. الانتفاضتان كانتا نتيجة عقود طويلة من الصراع السياسي والثقافي، وكلاهما استعملتا تكتيكات جريئة وأبعد بكثير من مجرّد الاحتجاج، وهذه التكتيكات شملت النشاطات المباشرة، إضرابات العمّال، المواجهات المباشرة والعنيفة مع السلطة ومرتزقتها في الشارع، احتلال المباني وإغلاق الشوارع والتعطيل الاقتصادي، ضرب البنية التحتية السياسيّة والأمنيّة للحزب الحاكم كإحراق سيارات الأمن ومقرّ الحزب الحاكم واحتلال مراكز أمن الدولة.

هذه النشاطات هي أبعد ما يكون عن المسيرة الفولكلوريّة السلميّة التي يتم تبجيلها اليوم في أوساط الكثير من الحركات السياسية. الثورتان شهدتا موت وجرح آلاف الناس، واعتقال وتعذيب عشرات الآلاف غيرهم قبل تحقيق أهدافها الأوّلية. تجدر الإشارة أيضاً إلى أن التظاهرات المناوئة للأنظمة لم تكن عفويّة، بل كانت تجري في مصر مثلاً لعقد على الأقلّ قبل إسقاط النظام في شباط 2011.

العديد من الحركات الشعبيّة مثل حركتا 6 أبريل وكفاية، نقابات العمّال، روابط الطلاب، ومبادرات الناشطين كانت تقوم لسنوات قبل الثورة بمواجهة السلطات وبناء الوعي ودفع الثمن لذلك بحياتهم وحرّيتهم. رغم ذلك، لم ينجح هدف إسقاط النظام إلا حين أصبحت الظروف السياسية، الاجتماعية والاقتصادية الكبرى مؤاتية لنجاح هكذا أمر. فعل الاحتجاج نفسه لم يكن ضمانة النجاح أو محرّكها.

نجاح الانتفاضة المصريّة لعام 2011 ارتبط بالعديد من العوامل المحلية والدولية وبطبيعة ردّة فعل الناس وتحرّكهم الذي قاد في نهاية المطاف إلى تجميد البلد بالكامل وإعطاء نظام حسني مبارك خيارين لا ثالث لهما: التنحّي، أو بدء حرب أهليّة.

ما يجب أن ننتبه له هنا هي أنه حين واجه الطغاة العرب الآخرين هذين الخيارين، اختار بعضهم قصف التظاهرات المدنيّة بالطائرات الحربيّة من دون أن يرفّ لهم جفن.

الانتفاضات العربيّة نفسها التي تم تمجيد تكتيك الاحتجاج على وقعها شهدت في الواقع فشل هذا التكتيك في معظم البلدان العربية الأخرى وفي التظاهرات التي تلت الثورتان المصريّة والتونسيّة في هذين البلدين. الاحتجاجات فشلت في تحقيق نتائج مباشرة في ليبيا، اليمن، سوريا، لبنان، البحرين، الجزائر، والسعوديّة. معظم هذه الحالات انتهت بقمع وحشي فعّال من الحكومات في وجه حركة الاحتجاج (البحرين والسعودية)، بتحرّك عسكري حاسم (ليبيا)، بتراجع الحركة بمفردها (لبنان والجزائر)، أو بحرب أهليّة مفتوحة (سوريا). الاحتجاجات أيضاً فشلت في تحقيق نتائج تذكر لحركة احتلوا وال ستريت في الولايات المتحدة والحركات المشابهة لها في أوروبا.

Figure 2: من احتجاجات احتلوا وول ستريت في الولايات المتحدة

على المدى الطويل، الاحتجاجات تبدّد طاقة الحركة من دون أن تعطيها شيئاً في المقابل. هذا الإصرار على جعل الاحتجاجات الشكل المفضّل للنشاط السياسي حوّلها أيضاً إلى النشاط الأكثر ملائمة لأصحاب الامتيازات، سواء كانوا في صفوف المحتجّين أم في صفوف السلطة. في الأحوال العاديّة، معظم الاحتجاجات تقتصر على عدد محدود من الناشطين المحترفين الذين يسكنون قرب مركز المدينة أو في العاصمة ويملكون الكثير من الوقت والموارد بحوزتهم. ظاهرة رؤية نفس الوجوه في الاحتجاجات المدنيّة هي ظاهرة تتكرّر في العديد من المدن في أنحاء العالم.

المشي في الشارع مع يافطات أو رفع يافطة جريئة حول التغيّر المناخي في مؤتمر لدول أوبك هي تحرّكات (وأحياناً بهلوانات) دعائيّة جيّدة، لكنها ليست نشاط سياسي فعّال. لا نستطيع تغيير سياسة دوليّة أساسيّة كسياسة الطاقة عبر إحراج بعض المندوبين لخمس دقائق في مؤتمر ما؛ القرارات السياسية لا تُصنع على هذا الأساس والقوى التي نواجهها اليوم لا يمكن إخراجها من سياساتها التدميرية بإحراجها. تمجيد تكتيك الاحتجاج يشير إلى أن التخطيط الاستراتيجي لحركات التغيير في ظلّ لعنة الألفية هو غير موجود، أو يقوم على رؤية طفوليّة جداً للسياسة.

أولئك الذين يديرون العالم لا يكترثون بيافطاتنا وشعاراتنا، لا يفهمون سوى لغة القوّة. وحين نقول قوّة، لا نعني بالضرورة استخدام العنف لأن القوّة تأتي بأشكال كثيرة ويمكن مواجهتها بأشكال كثيرة كذلك. لكن، حتى الحركات التي تزعم أنها تفهم واقع القوّة والسلطة وتسعى لمواجهة المنظومة الحاكمة عبر وسائل غير سلميّة هي عالقة أيضاً بنفس الدوّامة من العقم الاستراتيجي.

التخريب (العشوائي) هو مثلنا التالي.

التخريب: تصريح سياسي-ثقافي أم تعطيل استراتيجي؟

كلمتا Vandalism و Sabotage يُترجمان في العربية بكلمة واحد هي "التخريب" رغم اختلافهما في المعنى. الأولى تشير غالباً إلى التخريب العشوائي أو الهمجي غير الممنهج، فيما الثانية تشير عادة إلى التعطيل الاستراتيجي للبنى التحتية الذي تقوم به الجيوش وحركات المقاومة خلال الحروب والصراعات السياسيّة. وبهذا المقطع، نحن نناقش التخريب العشوائي Vandalism الذي تقدّسه معظم الحركات الأنركيّة والإيكولوجية العميقة بنفس الطريقة التي تقدّس بها المجموعات اللاعنفيّة تكتيك الاحتجاج.

التخريب هو فعل تدمير الممتلكات والبنى التحتيّة كوسيلة للتعبير عن موقف سياسيّ أو كتكتيك في الصراع. الممتلكات المُستهدفة في معظم عمليات التخريب السياسي حول العالم تعود عادة للحكومة أو الشركات الكبرى، لكن التخريب السياسي يكون أيضاً أكثر عشوائية من ذلك في الكثير من الأحيان.

بالنسبة للعديد من المنظّمات الراديكالية، التخريب هو الكأس المقدّسة للنشاط السياسي، خاصة أنه يتضمّن مخاطر أعلى على السلامة الشخصيّة للناشطين الذين يقومون به. التخريب هو لمعظم الذين يقومون به اليوم هدف بحدّ ذاته، وغالباً ما يتم بطرق عشوائية ومرتجلة خلال أعمال الشغب والتظاهرات، ونادراً ما يتم اختيار الأهداف بحسب وزنها الاستراتيجي. لهذا السبب، لم تؤدّي عقود من التخريب في أوروبا وأميركا الشمالية إلى أي نتيجة سياسيّة على الإطلاق.

تخريب المقاهي وسلاسل مطاعم الوجبات السريعة وواجهات المحال الفخمة قد يكون تصريحاً سياسياً نوعاً ما، لكنّه بالتأكيد ليس تحرّكاً فعالاً يمكن أن يقود إلى تغيير حقيقي. التخريب قد يكون فعّال جداً، لكن في ظلّ سياق محدّد جداً ومع أهداف محدّدة جداً. كما مع الاحتجاج، الإصرار على التخريب كهدف من دون أخذ السياق بعين الاعتبار يلهي الحركة عن القيام بعمل حقيقي طويل الأمد على الأرض ويغذّي نفس نوع التفكير اللااستراتيجي المنتشر في صفوف حركات الألفيّة.

Figure 3: خلال عمليات التخريب السياسي في أوكلاند في الولايات المتحدة خلال اعتصام لحركة احتلوا وول ستريت

في نقد لتكتيكات البلاك بلوك (الكتلة السوداء) التي يتم فيها استخدام الكثير من التخريب اللااستراتيجي، يشير المؤلف دريك جنسن إلى أن:

"تفكيرهم ليس غير استراتيجي فحسب، بل هو يعارض بنشاط الاستراتيجيّة. هم لا يريدون التفكير بشكل نقدي حول ما إذا كانوا يتصرّفون بشكل مفيد في اللحظة. ليس لدي مشكلة مع أي شخص يريد خرق حدود العنف حين يكون هذا الخرق الردّ الذكي والمناسب للظروف، لكن لدي مشكلة هائلة مع الذين يخرقون حدود العنف حباً بتجاوز الحدود. من الأسهل لدرجة كبيرة التقاط حجر عن الارض ورميه على النافذة الأقرب مقارنة مع بناء التنظيم، أو على الأقل مقارنة مع التفكير إلى أي نافذة تحديداً نريد أن نرمي الحجر قبل رميه. الكثير من هذا التفكير يعود إلى الكسل"[5].

ثيودور كازينسكي، المعروف بـ Unabomber (قام بحملة تفجيرات في الولايات المتحدة في الثمانينات والتسعينات لإسقاط النظام الصناعي-التكنولوجي)، أيضاً يتحدّث عن هذه القضية:

"تدمير ماكدونالدز أو ستاربكس لا جدوى منه. ليس الأمر أنني اكترث لماكدونالدز أو ستاربكس، لا أكترث إذا ما قام أحدهم بتحطيم هذه المطاعم والمقاهي أم لا. لكن هذا الفعل ليس نشاطاً ثورياً. حتى ولو تمّت إزالة كل مطاعم الوجبات السريعة في العالم، لن يعاني النظام الصناعي-التكنولوجي سوى القليل من الأذى كنتيجة لذلك، بما أنه يستطيع الاستمرار بسهولة من دون سلاسل مطاعم الوجبات السريعة. حين تهاجم ماكدونالدز او ستارباكس، أنت لا تضرب السيستيم في المكان الذي يؤلم"[6].

يتابع كازينسكي بالقول: "للعمل بشكل فعّال على إزالة النظام الصناعي-التكنولوجي، على الثوريين أن يهاجموا السيستيم في نقاط لا يستطيع التراجع عنها. عليهم أن يهاجموا الأعضاء الحيويّة في جسم السيستيم". ويعدّد صناعة الطاقة والكهرباء، صناعة الاتصالات، صناعة الكمبيوتر، صناعة البروباغاندا (التعليم والإعلام)، وصناعة التكنولوجيا البيولوجية والتعديل الجيني كأهداف حيوية تستطيع تغيير مجرى المعركة مع السيستيم.

لكن رغم ذلك، هذه الانتقادات لا يبدو أنها تصل إلى العديد من الحركات الراديكالية التي لا تزال تعتبر أن التخريب بأسلوبه العشوائي هو الطريق الوحيدة للخلاص.

القرصنة الالكترونية: هل تستطيع المعارك الالكترونية رسم معالم الواقع؟

المشكلة نفسها التي شخّصناها في تكتيكات الاحتجاج والتخريب العشوائي نجدها أيضاً في الأشكال الأخرى غير التقليديّة من النشاط السياسي مثل القرصنة الالكترونيّة لأهداف سياسيّة المعروفة بالانكليزية باسم Hacktivism.

القرصنة كفعل سياسي هي بالنسبة لكثيرين شكل راديكالي من النشاط على الانترنت. بروز مجموعات القرصنة الناشطة والمنظّمة مثل أنونيموس Anonymous قد غيّر بالتأكيد ملامح النشاط المرتكز على الانترنت. مجموعات أنونيموس خاضت الكثير من المعارك التي شملت أمور من كارتيلات المخدرات والمواقع الإباحية التي تحتوي على صور قاصرين وصولاً إلى إغلاق مواقع الشركات المالية الكبرى والأجهزة والمؤسسات الحكوميّة.

وفقاً لتقرير من شركة التعاقد الأمني رادوير[7]، عمليّة أنونيموس المعروفة باسم "الانتقام" خلال مواجهة WikiLeaks مع الحكومة الأميركيّة في العام 2010 كانت نقطّة تحوّل رئيسيّة في المشهد الأمني في عام 2011. وفي العام 2012، وضعت مجلّة التايم الأميركية مجموعات أنونيموس على لائحة أكثر المجموعات تأثيراً في العالم[8].

وفي تقرير حول تصاعد التحدّيات الأمنيّة في عصر المعلومات، سمّى حلف الناتو مجموعات أنونيموس كفاعل جديد ومهم على المسرح الدولي وخاصة أنه قد يطوّر القدرة قريباً على الدخول إلى شبكات الحكومة وسرقة ملفات حسّاسة[9].

المفارقة هي أن التقارير نفسها تذكر أن النتيجة الأكثر بروزاً لهجمات أنونيمس هي أن المواقع الالكترونية للحكومات والمؤسسات المالية التي تعرّضت للقرصنة أصبحت أكثر أمناً ومناعة تجاه الهجمات الالكترونية بعد موجات عامي 2011 و2012. هجمات أنونيموس ومعظم هجمات القرصنة من المجموعات الاخرى لم تؤدي ولا مرة إلى تعطيل استراتيجي للنشاط الحكومي أو نشاط الشركات والأجهزة على أرض الواقع.

على سبيل المثال، خلال المواجهة بين WikiLeaks والحكومة الأميركية، أوقفت شركات باي بال، ماستر كارد، وفيزا، خدماتها لموقع WikiLeaks، ووعدت أنونيموس بالتصعيد رداً على القرار. الهجمات التي تلت من أنونيمس حجبت المواقع العامّة لهذه الشركات لكنها لم تعطّل شبكات التحويل المالي لها للحظة واحدة.

على الجهة الأخرى، من المثير للاهتمام أن نرى أن مجموعات القرصنة ومجموعات النشاط على الأرض لا تزال منفصلة عن بعضها البعض لحدّ كبير. كنتيجة، مجموعات القرصنة تخسر حليفاً استراتيجياً مهماً يستطيع جعل ضرباتها أكثر فعاليّة، فيما مجموعات النشاط تخسر سلاحاً مهماً في معركتها مع السلطات والشركات. كنتيجة لهذا الانفصال، نادراً ما نفّذت مجموعات القرصنة ضربة غيّرت مجرى الأمور في الصراعات السياسيّة.

هذه المجموعات استطاعت بالتأكيد توجيه ضربات مؤلمة هنا وهناك وإحراج بعض الحكومات والشركات، لكن ذرباتهم لم تستطع تغيير قواعد اللعبة، وهذا لأن قواعد اللعبة لا يمكن تغييرها عبر الانترنت وحده.

معضلة تدنّي فعاليّة القرصنة – خصوصاً حين تكون يتيمة وغير مرتبطة بنشاط أوسع على أرض الواقع – ترتبط أيضاً بالطبيعة المؤقّتة والمتحرّكة للمشهد الالكتروني. فماذا يبقى مثلاً من الرسالة إن عاد الموقع الالكتروني المستهدف كما كان بعد 24 ساعة من القرصنة؟ وما هو التأثير الذي يتركه هكذا هجوم الكتروني على أرض الواقع؟

النقد حول فعاليّة الأشكال الثلاثة من الاحتجاج، التخريب، والقرصنة الالكترونية، سواء كان مذكوراً في هذا النصّ أو على لسان المؤلفين والناشطين الذين استشهدنا بكلامهم، يرتكز على فكرة أن الحركات التي تقوم بهذه النشاطات مهتّمة بشكل رئيسي بتحقيق نتائج سياسيّة استراتيجيّة. لكن المشكلة هي أن الاعتماد على هذه الأشكال الثلاثة من النشاط هو في جوهره لا يهدف لتحقيق نتائج حقيقيّة على أرض الواقع، بل هو تعبير عن مشكلة أعمق موجودة في قلب الحركات السياسيّة الألفيّة، سنتحدّث عنها الأسبوع المقبل.

هل نريد القيام بضجّة أم تحقيق تغيير حقيقي؟

حين تلاشت حركة احتلوا وول ستريت، معظم الحركات والناشطين والمعلّقين الألفيين أعلنوا أنها في الواقع حقّقت أمراً مهماً جداً: إدخال قضيّة العدالة الاجتماعيّة إلى قلب النقاش العام. هذا الميل للقول أن الانجاز الاكبر لحركة احتجاج هو وضع قضية ما تحت الضوء العام يُستعمل في كل مكان لتبرير فشل حركات الاحتجاج. المشكلة الحقيقيّة هي أن الحركات والناشطين الألفيين لا يصدّقون أن هكذا هدف متواضع هو انجاز عظيم فحسب، بل يعتقدون أن الاحتجاج نفسه هو مجرّد طريقة لإيصال الصوت والهواجس، لا لتحقيق نتائج سياسيّة استراتيجيّة.

الصحافي الانكليزي أديتيا شاكرابروتي يعطي مثالاً جيداً عن هذه الذهنية السائدة ويذهب خطوة أبعد إلى اعتبار أن مجرّد وجود حركة احتلّوا وول ستريت هو انجاز. في مقالة رأي بمناسبة الذكرى السنوية الأولى للحركة، عبّر شاكرابرواتي عن دهشته عن مقارنة الحركة المتلاشية بحزب الشاي (اليميني الأميركي) القوي:

"على الجهة الأولى لدينا مجموعة من العدميين اليمينيين الذين يقبضون أجور من المليونيرات الأخوان كوش والذين يمتلكون محطتهم التلفزيونية الخاصة فوكس نيوز؛ وعلى الجهة الثانية لديك مجموعة من الطلاب المتواضعين، العاطلون عن العمل، وبضعة شبان مع مدوّناتهم الخاصة. بالنظر إلى أحجامهم المختلفة، من الملفت أن حركة احتلوا استطاعت الوصول إلى ما وصلت إليه، محوّلة شعار 'نحن الـ 99 %' إلى أحد أكثر الشعارات المدوّية في تاريخ الحملات السياسيّة"[10].

شاكرابروتي لا يحدّد كيف أن شعار الـ "99 %" هو أكثر شعار مدوّي في التاريخ لكنه يتابع ويعدّد انجازات أخرى للحركة وهي "إطلاق النقاش" لبعض الناس: "صرف حركة احتلوا بهذه الطريقة يتجاهل ما حققته الحركة حتى الآن. حديقة زوكوتي (في نيو يورك) سمحت لمئات الغرباء بتطوير حجج سياسيّة وروابط قويّة على السواء".

أعظم انجاز لحركة وعدت بتغير المشهد السياسي الأميركي برمّته هو إذاً مساعدة بضعة مئات من الناس على تطوير حجج سياسيّة جدية؟

ماريا سيترين، مؤلفة كتاب "الأفقيّة: أصوات السلطة الشعبيّة في الأرجنتين"، مدحت حركة احتلوا بنفس الكلمات تقريباً:

"العديد داخل حركة احتلوا، ومن بينهم المشاركين الذين تحدّثت معهم في اليونان واسبانيا، يؤمنون بأنهم نجحوا بطرق مهمّة: تغيير الخطاب السياسي الوطني والعالمي، تحقيق تغييرات صلبة في حياة الأفراد، إعادة القوّة للحركات الشعبيّة من الأسفل، بالإضافة إلى ما قد يكون النقطة الأهم: إعطاء الناس شعوراً بأن المجتمع والعالم يمكن أن يكون مختلفاً وبأن نشاطهم يمكن أن يحقّق ذلك. ومن هذا المنظور، وفيما لا يزال هنالك الكثير من التحدّيات أمامنا، حركة احتلوا ستكون وتبقى منتصرة"[11].

مرّة أخرى، تتمحور الانجازات التي عدّدتها سيترين حول كلمات مثل "تغيير الخطاب"، "تغيير حياة الأفراد"، "إعطاء الناس شعوراً"، وليس حول تحقيق تغيير حقيقي في السياسات العامة أو بنية المنظومة السوسيو-اقتصاديّة. سيترين تفترض حتى أن الهدف نفسه لحركات مثل حركة احتلوا ليس "خلق برنامج أو حزب سياسي سيضع خطّة للآخرين ليلتزموا بها. هدفهم ليس تحديد الطريق الذي يجب أن يأخذه بلد معيّن". ما هو الهدف إذاً من القيام بتعبئة سياسيّة وإعلاميّة بهذا الحجم؟ تجيب سيترين: "خلق مساحة للحوار يستطيع الجميع المشاركة فيها ونستطيع فيها القيام سوياً بتحديد ما يجب أن يبدو عليه المستقبل". حتى إن "الآلاف من المجالس والاعتصامات التي حصلت في الولايات المتحدة، اليونان، وإسبانيا، هدفها هو فتح المساحات للناس للحديث عن هواجسهم ورغباتهم"[12].

الارتباك حول هدف حركات الاحتجاج مثل حركة احتلوا لا يقف هنا. في مقالها الذي اعتبر تعبيراً عن جوهر حركة احتلوا، تشرح سيترين مثلاً أن "نقطة المرجع بالنسبة لهذه الحركات ليس الدولة أو السياسة التقليدية. لا يوجد هنالك رغبة بالاستيلاء على الدولة أو خلق حزب جديد. حركة احتلوا ترفض هذه الأشكال من السياسة التمثيليّة وتركّز بدلاً منها على الناس الذين يأخذون حياتهم بيدهم ويوسّعون المساحات الديمقراطية التي يعملون ويعيشون فيها".

نحن نوافق على هذا الاتجاه، لكن سيترين في المقطع التالي تقول أن هكذا حركات لديها مطالب مثل "احتواء سلطة الشركات، توسيع حقوق الوصول إلى المسكن والتعليم، وإنهاء برامج التقشّف والحروب". السؤال هنا هو: كيف يمكن لحركة ترفض السياسة التمثيليّة أن يكون لديها في الوقت نفسها مطالب موجّهة إلى السلطة السياسيّة والدولة؟ سيترين لا تجيب عن ذلك.

المثالين من شاكرابروتي وسيترين يعبّران لحدّ كبير عن كيفية تعامل اليسار، الليبراليين، والتيارات الألفية الأخرى مع حركات الاحتجاج. هذين المثالين يظهران ميل أوسع في حركات الألفية في كل العالم يعتبر أن "إطلاق النقاشات العامة" هو أعظم انجاز لحركة، كأنه لا يوجد نقاشات لا تحصى تحصل كل يوم في الشارع والجامعات والحقول والمكاتب وعلى الانترنت والاعلام.

من المثير للاهتمام أن مؤيدي التخريب العشوائي لديهم المقاربة نفسها: هدف التخريب بنظرهم ليس تحقيق نتائج استراتيجيّة بل دفع النقاش العام قدماً. بالنسبة لمعظم الحركات الداعمة لنشاطات التخريب، هذا الفعل ليس تكتيكاً يُستعمل لقلب السيستيم، بل للتعبير عن الثقافة البديلة فقط.

في حديث للإعلام، تشرح مجموعة ACME الأنركية الأميركية، والتي كانت منخرطة بقوّة في أحداث الشغب الشهيرة في سياتل خلال مؤتمر منظمة التجارة العالمي عام 1999، عن مفهومها للتخريب الذي يشير بوضوح إلى أنه تعبير عن موقف وليس نشاط استراتيجي. تقول الحركة:

"حين نحطّم نافذة، نحن نهدف لتحطيم القشرة الرقيقة من الشرعيّة التي تحيط بحقوق الملكيّة الفرديّة... النوافذ المحطّمة يمكن إغلاقها ومن ثم إصلاحها، لكن تحطيم المفاهيم سيستمرّ لبعض الوقت"[13].

مثال آخر يمكن أخذه من قمّة دول G20 في تورونتو في كندا عام 2010 التي شهدت نشاطات تخريب واسعة قادت إلى اعتقال مئات الناشطين. قبل شهر من القمّة، أعلنت مجموعة أنركية تُدعى "تحالف المقاومة الأنركية في جنوب أونتاريو" SOAR، عن خطّتها لإقامة "احتجاجات عنيفة" وتوعّدت بأن "الحركة ستكون عنيفة ومجابهة"، إلا أن الهدف الذي حدّدته المجموعة من النشاط كان ثقافياً ونفسياً ولم يكن الهدف تحقيق نصر استراتيجي أو تكتيكي: "سوف نذلّ الجهاز الأمني ونجعل نخبة تورنتو تندم على السماح لعصبة الـ G20 بالقدوم إلى تورنتو"[14].

أحد المنظّمين، ألكس هوندرت، شرح وجهة النظر هذه بعد الأحداث معتبراً أن التخريب "يعمل كماكينة هدم تفتح الطريق أمام مجموعات احتجاج أخرى للتعبير عن قضاياهم المتنوّعة". تحطيم نوافذ في شركة هودسون باي كو (التهمة التي اعتقل هوندرت على خلفيتها)، "فتح في الواقع مساحة للكنديين للتوقّف لحظة والتفكير بالتاريخ الاستعماري لهذه الشركة"، وفقاً لهوندرت[15].

"الصدم الثقافي" و"تحطيم المفاهيم" هي أيضاً الأهداف الرئيسيّة بالنسبة لجون زيرزان، أحد الفلاسفة الرئيسيين الذين أثروا على الحركة الأنركية-البدائية المعاصرة، والذي سُمّي بالأب الروحي لشغب سياتل في العام 1999. بالنسبة لزيرزان، النوافذ المحطمة "هي بمثابة جرس إنذار مصمّم للفت انتباهنا إلى الكارثة الاقتصادية، الاجتماعية، والبيئية المتسارعة. عندها يمكنك التوقّف لكي تشرح (للرأي العام) لماذا يقوم بعض الناس بذلك (التخريب). وعلى الإعلام أن يعطي مساحة لذلك لكي يعرف الناس ماذا يجري"[16].

رغم تواضع الهدف، فتح نقاش يبقى هدفاً أفضل بكثير من شعار إحدى مجموعات أنونيموس المعروفة باسم lulzec الذي يقول: "نحن نفعلها (القرصنة) من أجل الضحكات". المشكلة هي أن القيام بالنشاط السياسي حباً بالضحك ليس كافياً أبداً لتغيير واقعنا البيئي، الاجتماعي، الاقتصادي والسياسي المتردّي، وكذلك لا ينفعنا تقزيم حركات احتجاج بأكملها وتكتيكات خطيرة كالتخريب إلى هدف فتح محادثات تحصل يومياً من دون هذه النشاطات أساساً.

لماذا تم اختزال أساليب النشاط السياسي بالهدف الخجول "إسماع صوتنا" أو "تغيير النقاش" بدل تحقيق تغيير حقيقي؟ ماذا حدث لحركات التغيير وجعل معاييرها متدنّية إلى هذه الدرجة؟

لا يوجد على الأرجح جواب شافٍ لهذا السؤال، لكن يمكننا تحليله قليلاً.

حين تحصر حركات بأكملها أهدافها بإسماع صوتها لمن هم في السلطة، هذا يعني ببساطة أنهم يتوقّعون من أولئك الذين في السلطة أن يسمعوهم وأن يقوموا بالتغيير المنشود بالنيابة عنهم، أو باسمهم. بكلمات أخرى، هم يؤمنون بأنهم يحتاجون للسلطات للقيام بالتغيير الذي لا يمكن أن يأتي بالنسبة لهم سوى من مكان آخر: من أولئك الذين يجلسون في المكاتب الحكوميّة الفخمة ويمشون في أروقة مؤسسات الدولة. الجوهر الثقافي للأشكال الحالي من الاحتجاج، التخريب، والقرصنة هو تعبير عن ثقافة سياسية بأكملها تقوم على فكرة المطالبة بالتغيير من السلطات بدل فرضه عليها فرضاً أو القيام به بأنفسنا.

الهدف النهائي للثقافة السياسية الألفية هو إطلاق موقف سياسي أو ثقافي، المطالبة بشيء ما من السلطات والشركات والرأي العام. الهدف هو توسّل هذه الأطراف، أو إغاظتها لدرجة كافية للاكتراث بقضية ما. في قلب النشاط الألفيّ هنالك ثقافة توسّل سياسي بين فريق لا حول ولا قوّة له وفريق يمتلك كل السلطة، وهذا النوع من الثقافة السياسيّة لا يمكن أن يحقّق شيئاً لأنه لا يستطيع أن يتجاوز ذهنيّة العبد والسيّد. وكما نحن على وشك أن نرى في أماكن أخرى من هذا الكتاب، نوع التغيير الذي نحتاجه لا يمكن لأي حكومة أو شركة أو طرف سياسي أو اقتصادي في العالم أن يعطيه أو يحقّقه لنا. كل حكومات العالم لا تستطيع أن تأخذ قراراً واعياً بإيقاف منظومة عبوديّة العمل والرأسمال أو بإيقاف الاقتصاد وتخفيض انبعاثات ثاني أوكسيد الكربون لمكافحة التغيّر المناخي مثلاً. رغم ذلك، لا تزال حركات سياسية واسعة كحركة مكافحة التغيّر المناخي تؤمن بأنه "إن كان هنالك حركة عالمية شعبية تضع قادتنا أمامنا وقائع العلم ومبادىء العدالة، نستطيع تحقيق حلول تضمن مستقبلاً أفضلاً للجميع"[17].

حقاً؟ أليس الإيمان بأمر من هذا النوع في الكثير من السذاجة؟

في مديحه لحركة "Idle No More" الاحتجاجية في كندا، كتب المؤلف والناشط يعقوب ديفاني، الذي هو أيضاً مؤسس ومدير مبادرة واسعة في كندا باسم Culture Collective، يتوقّع نشوء "سوبر حركة عالمية" تراهن على القادة السياسيين لتصحيح الأمور. يقول دافني: "سواء كنا نتحدّث عن أنونيموس وويكي ليكس تفضح فساد الحكومات، أو الهنود بطبولهم يرقصون ويغنّون في مركز تسوّق محلي، الناس في كلّ مكان تستيقظ، ترفع صوتها، وتنشط من أجل التغيير. حان الوقت للقادة السياسيين والدينيين أن يفهموا الرسالة في كل مكان"[18]. هذه الجملة تلخّص طبيعة المشكلة في الثقافة السياسيّة الألفية التي تتوسّل السلطة لتحقيق التغيير.

في هذه المرحلة من حياة الرأسمالية الصناعية، معظم الأنظمة السياسية في العالم هي عقيمة بالكامل، غير فعّالة، وفي بعض الأحيان هي مجرّد ديكور تزييني لبلد ما. حجم المعضلات وحالة الانهيار المتقدّمة في حضارتنا تعني أنه حتى حين تنجح المطالب السياسية في فرض سياسات عامة جديدة، فذلك لن يكون كافياً للتعامل مع المشكلة. الطريقة الوحيدة أمامنا لتحقيق تغيير إيجابي هيبناء مجتمعات منيعة متناغمة مع الأرض ومع نفسها من دون تبديد طاقتنا على الجسم الميت للدولة والسلطة، إلا حين يقف في وجه تحقيق أهدافنا.

لعلّ الجوهر غير المعروف للنشاط السياسي الألفي هو حقيقة أنه يعبّر عن ادمان ثقافتنا العصريّة على الحلول السريعة. نحن نعتقد أن كل ما نحتاجه لتغيير وضع سياسي أو اقتصادي أو بيئي ما هو بضعة أيّام من الاحتجاج، أو بضعة أفعال من التخريب، أو بضعة هجمات قرصنة على موقع شركة ما. لكن الحقيقة تقول أنه لا يوجد حلول سريعة لمعضلاتنا الإنسانيّة الحالية، لا الآن، ولا غداً. لا يوجد فعل أو نشاط واحد يمكنه أن يحلّ كل شيء بضربة واحدة. هنالك فقط حلول صعبة أمامنا، وأحياناً لن يكون هنالك حلول على الإطلاق. لا نستطيع المرور في كل التحولات المؤلمة التي تنتظرنا خلال السنوات القادمة ونحن نؤمن بأشكال عقيمة من النشاط السياسي لا تهدف سوى لتحقيق بعض الضجّة. نحن نحتاج لضجّة أقل، وعمل أكثر.

III

النضال على كوكب آخر

مشكلة محوريّة الانترنت في النشاط السياسي

الانترنت هو اليوم جزء أساسي من النضال السياسي. بالنسبة لجيلنا الرقمي، من الصعب تخيّل كيف يمكن أن يبدو النشاط التغييري من دونه. الشبكة العنكبوتيّة أتاحت لآلاف الناشطين والمجموعات بالتواصل، تبادل الأفكار، جمع المعرفة، وبناء شبكات عملاقة ببضعة نقرات على الزرّ ومن دون كلفة تُذكر – انجازات كانت مستحيلة بالنسبة للحركات السياسية في العقود الماضية.

العديد من الحكومات تخاف من الانترنت وتحاول السيطرة عليه. الكثير من الكتب نُشرت حول كيف يقوم الانترنت بتمكين المواطنين العاديين، وحتى أجهزة الاستخبارات تعترف بتأثيره الهائل على الشبكات السياسيّة. الاستخبارات الكندية مثلاً لاحظت في تقرير لها كيف أن الانترنت

"يسمح بالتواصل والتنسيق من دون الحاجة لمصدر مركزي للقيادة، وهو يسهّل التحرّكات المنسّقة من دون بيروقراطية وبالحدّ الأدنى من الموارد"[19].

وفقاً للعالم السيوسيولوجي الاسباني مانويل كاستيلز، الانترنت هو محوري للناشطين الجدد لأنه "يؤمّن المنصّة الأساسية للنقاش، وللتأثير على أفكار الناس، ويخدم في نهاية المطاف كسلاحهم السياسي الأكثر فعاليّة"[20].
في تحليلها لاستخدام حركة احتلوا وول ستريت للانترنت، تشير الباحثة ميشيل أوبراين إلى أن "حركة احتلوا وول ستريت تستعمل الانترنت بطرق عديدة كأداة للوصول والتعبئة. ذلك يشمل إنتاج إطارات تحدّد مجال الحركة والنشاط عبر نشر البيانات، المبادىء والسياسات؛ ويشمل أيضاً بناء شبكات من خلال المجموعات الالكترونيّة البارزة ومن بينها مراكز الأبحاث، والمجموعات القانونية والإعلامية والتطوعيّة؛ ويشمل نشر موارد مهمة مثل الكتيبات الالكترونية بالإضافة إلى إظهار أهدافهم السياسية عبر التنظيم الالكتروني للتحركات التي تشمل الاعتصامات، التظاهرات، والمسيرات"[21].

أوبراين تخلص إلى القول أن الانترنت ساهم في ظهور نوع جديد من النضال:

"من خلال صعود حركات كاحتلوا وول ستريت، يمكن أن نقول منذ الآن أننا دخلنا عصر جديد من النضال، وُلد من، ويعبّر عن نفسه ويعمل من خلال منظومة مجتمعيّة متشابكة الكترونياً"[22].

أبروابن محقّة حين تقول أن الانترنت ساهم في ظهور نوع جديد من النشاط، لكن هل هذا النوع الجديد أفضل أم أسوأ من سابقه؟

بالنسبة لمعظم ناشطي وحركات الألفيّة، هنالك اجماع لا نقاش فيه أن هذا النوع الجديد هو أفضل. لكن المثير للسخرية، أن هذه الحركات نفسها – المستفيدة من أكثر التكنولوجيات تطوراً التي عرفها البشر في تاريخهم – تترنّح في مسيرها وتفشل في تحقيق أهدافها. في المقابل، هنالك عدد لا يحصى من الحركات الاجتماعية والسياسية والمقاومة والثورية التي كانت موجودة، عملت بفعاليّة، وحقّقت أهدافها قبل عقود وسنوات من ظهور الانترنت. في الواقع، يمكننا أن نجادل بأن معظم الخصائص التي اكتسبها النضال بتأثير من الانترنت هي سلبيّة، حتى تلك التي يتم عادة مدحها على أنها فتح عظيم.

صعود أهمّية الانترنت ودوره يمكن تسميته بـ"محوريّة الانترنت" تسهيلاً للنقاش، وهي من دون شك إحدى اكثر لعنات الألفيّة خبثاً بعدما حوّلت النضال التغييري إلى مسابقات شهرة الكترونيّة لا تمتلك الكثير من التأثير على العالم الحقيقي.

في كتابه "وهم الشبكة" (2011)، يتحدّث الكاتب البيلاروسي إيفجيني مورزوف عن محوريّة الانترنت كفلسفة نضال تحدّد كيفيّة صناعة القرارات والاستراتيجيات البعيدة الأمد في البلدان الغربيّة فيما يتعلّق بتسويق الديمقراطية في بلدان العالم الثالث[23].

هذه الفلسفة تعزّزها أيدولوجية "المثالية الرقميّة". الأخيرة هي الاعتقاد المتحمّس بأن الانترنت وحده هو أداة تمكين ذات اتجاه واحد تساعد الديمقراطية والتحرّر. محوريّة الانترنت التي حلّلها مورزوف مهيمنة بقوّة على دوائر القرار في العواصم الغربيّة، لكن هذه الذهنية هي أيضاً الأيدولوجية النضالية الرئيسية للعديد من الحركات والناشطين حول العالم اليوم.

بكلمات مورزوف: "محوريّة الانترنت هي مخدّر مربك جداً؛ فهو يهمل السياق ويأسر صانعي السياسي في الإيمان بأنهم يمتلكون حليف قوي وفعّال إلى جانبهم. حين يتم الإيمان بها بشدّة، تؤدّي إلى العجرفة، الغرور، وشعور زائف بالثقة، كلّه مسنود بالوهم الخطير بالتمكّن من القيادة الفعّالة للانترنت"[24].

التعريف الذي وضعه مورزوف يصلح لوصف محوريّة الانترنت لدى حركات الألفيّة. يمكننا أن نقول أن محوريّة الانترنت هي التفكير، التخطيط والعمل ضمن سياق الانترنت بدل سياقات العالم الحقيقي. تحت تأثير محوريّة الانترنت، الاستراتيجيات والأنشطة تصبح متمحورة حول الانترنت لدرجة أن النشاط السياسي الطويل الأمد الذي لا يمكن تحويله إلى شريط يوتيوب أو صورة فايسبوك يختفي كلياً عن خارطة نضال الناشطين والحركات السياسية. الأولوية تُعطى للانترنت والظهور على حساب السياق وفعاليّة النشاط نفسه.

رغم أن الانترنت "لا يعطي شيئاً مضموناً"، و"يمكّن القوي ويضعف الضعيف"، بكلمات مورزوف، إلا أن الحركات الناشطة تعتمد عليه لدرجة كبيرة كأنه تذكرة مضمونة لتحقيق كل أهداف التغيير الاجتماعي والسياسي من دون التوقّف للحظة للتفكير بما إذا كان لديه نتائج سلبية على الحركة. المحوريّة العميقة للانترنت تؤدي إلى اعتناق أسلوب غير نقدي في التعامل مع الانترنت وأدواته العديدة، ما يغذّي بدوره العديد من الآثار السلبية التي تلقي بظلالها على فعاليّة النشاط التغييري.

من هذه الآثار، نذكر:

النشاط الفردي على حساب العمل الجماعي

الفردية المفرطة هي سمة عامة لعصرنا وليست نتيجة الانترنت، لكن الانترنت في جوهره وخاصة بنسخته الاجتماعية هو مهندس بطريقة تقوّي دائماً الفرديّة على حساب الجماعة. الاعلام الاجتماعي ليس اجتماعياً تحديداً، لكنه العكس تماماً: هو مهندس لمكافأة الفرديّة والانجازات الشخصيّة. إنه نرجسيّة بامتياز. تأثير هذه الهندسة على النضال السياسي لا يمكن قياسها علمياً، لكننا نستطيع أن نقول بثقة أن الانترنت هو بوضوح عامل يشجّع على ترويج صورة "الناشط الفرد" بدل ترويج ضرورة وجود منظّمات فعّالة.

تعزيز سلوكيّة الجماعة-العصابة

من المثير للاهتمام أن تعزيز سلوكيّة الجماعة-العصابة هو أيضاً أحد خصائص الانترنت والإعلام الاجتماعي بشكل عام. البعض قد يعتقد أن هذه الظاهرة متعارضة مع الظاهرة التي تحدّثنا عنها أعلاه – تعزيز الفرديّة على حساب الجماعيّة – لكن الظاهرتان تنبعان في الواقع من نفس طبيعة الانترنت. الفرديّة التي يشجّعها الإعلام الاجتماعي هي عادة فردية مقولبة جداً.

بعد قضاء بعض الوقت في مواقع الاعلام الاجتماعي يمكن للشخص أن يلاحظ أنه هنالك أدوار اجتماعيّة مقولبة ومحدّدة مسبقاً للجميع: للناشط، للفنّان، للجيغولو، للمثقف، وللمتحمّس السياسي...ألخ. لكي تدّعي الانتماء إلى مجتمع الناشطين مثلاً، عليك أن تمتلك أو تظهر المعايير التي حدّدها المجموع بشكل مسبق على الانترنت، كالطريقة التي تتحدّث بها، والمفردات التي تستخدمها، وحتى طبيعة صورة البروفايل (التي عادة ما تكون صورة لك في تظاهرة أو مع يافطة). وفوق كل ذلك، عليك أن تمثّل بنجاح الذهنيّة التي نسمّيها في هذا الكتاب "لعنة الألفيّة".

على السطح، تبدو الفرديّة أنها تعبّر عن تنوّع هائل وحرية إضافية على الانترنت، لكن على مستوى أعمق هي تعبّر في الواقع عن العكس تماماً: عن عمليّة القولبة المستمرّة على الانترنت، عمليّة فرض التطابق في الأدوار الاجتماعية، وغياب الحرّية. النقطة الأخيرة يمكن أن نراها بوضوح حين ينفجر سلوك الجماعة-العصابة على الإعلام الاجتماعي فيما يتعلّق بقضيّة عامة ما.

حدث واحد قد يغرق الإعلام الاجتماعي لأيّام بنفس المضمون والفيديوهات والستاتوسات من دون توقّف أو رحمة وفي ظلّ وجود مساحة صغيرة جداً للتعبير عن الآراء المختلفة. إعطاء رأي مخالف لرأي الجموع في دوائر الناشطين حول أي وجه كان من الانتفاضات العربية للعام 2011 على سبيل المثال كان محرّماً في البداية في المساحات العربية من وسائل الإعلام الاجتماعي.

الأمر نفسه حصل في العديد من الدوائر الليبرالية واليسارية في الغرب حين انطلقت حركة احتلوا وول ستريت. في الحالتين، الناشطين الذين تجرّأوا على أن يكونوا نقديين تعرضوا للبلطجة الالكترونية، تم رفضهم، نبذهم، تهديدهم أحياناً، وقمعهم بشكل عام لكي ينصاعوا لرأي الغالبية أو يلتزموا الصمت.

بشكله الحالي، الانترنت لا يشجّع كثيراً على النقد والتفكير الذاتي، أو حتى التفكير بشكل عام؛ في ظلّ كل الحركة التي تحصل أونلاين من دون انقطاع 24 ساعة في اليوم، من الصعب جداً التوقف والتفكير بوضوح حول القضايا العامة، إلا إن انقطعنا عن الانترنت كلّه لفترات دورية.

تعزيز النقص الحادّ في الثقافة السياسيّة

كان هنالك آمال عالية في الماضي معقودة على الانترنت بأنه سيكون أداة تعزيز ثقافيّة، وهو بالفعل يمكن أن يكون أداة هائلة في هذا المجال. لكن للأسف، جانب الإعلام الاجتماعي من الانترنت يتحرّك في الاتجاه المعاكس ويعزّز نقص جدّي في الثقافة السياسية في صفوف الجيل الرقمي. في ظلّ وجود هذا الكمّ الهائل من الإلهاءات الالكترونية والتركيز الهائل للإعلام الاجتماعي على "أنا، أنا، أنا"، من النادر أن نرى ناشطاً يخصّص ما يكفي من الوقت اليوم لقراءة كتاب مثلاً.

العمليّة البطيئة والمنهكة لبناء ثقافة سياسيّة صحّية عبر فهم المبادىء، التاريخ، والسياقات السياسية، يتم استبداله بطوفان من المعلومات الفارغة التي لا يتعدّى أكبرها خبر من خمسة أسطر. هذا الطوفان من تحديثات الستاتوسات، الفيديوهات، والاخبار، يعرقل العديد من الشباب من اختيار الطريق الأطول لبناء ثقافة سياسيّة حقيقيّة.

أثر آخر للإعلام الاجتماعي هو الجهل التام للناشطين بالتاريخ وبماضي قضيتهم نفسها في البقعة الجغرافية التي يعيشون فيها، بما أن الاعلام الاجتماعي هو دائماً حول تحديثات اللحظة الحالية فقط. لا يوجد استمراريّة ثقافيّة تُذكر في النضال السياسي في دوائر ناشطي الألفيّة، والناشطون نادراً ما يتعلّمون أو يستفيدون من دروس التجارب التي سبقتهم. ولذلك نراهم يكرّرون الأخطاء نفسها التي كان يمكن تجنّبها لو كان لديهم فهم كافٍ للتاريخ والبُنى السياسيّة.

إلى ذلك، الحجم الهائل للمعلومات التي نتعرّض لها يومياً في الإعلام الاجتماعي، وطريقة تشظّي ما نأخذه من معلومات، تعرقل بوضوح بروز ثقافة سياسيّة متناغمة على المستوى الاجتماعي الأوسع في صفوف الشباب. جيلنا بالكاد يكاد يتفق على مفهوم سياسي واحد، فكيف بثقافة بأكملها؟

معضلة الإعلام الاجتماعي أنه فيما يعطي الجميع صوتاً يسهّل تمكينهم سياسياً، هو يصعّب كثيراً على الناس أن يمتلكوا صوتاً موحداً في وجه السلطات وقوى الأمر الواقع، ما يؤدي في نهاية المطاف إلى إضعافهم أكثر من السابق. هذه الملاحظة تقودنا إلى ظاهرة سلبيّة أخرى لمحوريّة الانترنت: ظاهرة التشظّي.

ظاهرة تشظّي الجهود والقضايا

نعني بظاهرة التشظّي، تشظّي الجهود، الوقت، الموارد، الرأي العام، والقضايا في كل مكان ننظر إليه في مشهد النضال السياسي الألفي. هذه الظاهرة لا تعود حصراً إلى مشكلة محوريّة الانترنت ولديها أسباب كثيرة أخرى، لكن محوريّة الانترنت تعزّزها بالتأكيد.

الإعلام الاجتماعي جعل من الممكن لأي كان أن يدعوا لتظاهرة، يعلن قضية جديدة، أو يسعى إلى تثبيت وجود سياسي ما، ما شجّع ولادة عدد لا يحصى من المبادرات والمجموعات التي رأى بعضها النور لأنه كان من البسيط جداً لشخص واحد أن يضع وصف صفحته على فايسبوك على أنها "منظّمة". بدل أن يكون لدينا حركات قويّة تعمل باستراتيجيات وأهداف واضحة، لدينا اليوم الآلاف من المجموعات الصغيرة، التي لا يتعدّى عددها أحياناً شخصين، تتنافس فيما بينها للبروز الالكتروني والإعلامي بدل التركيز على تحقيق أهدافها التغييريّة.

مسابقة الشهرة الإعلامية

هذه واحدة من أكثر التأثيرات المعروفة للإعلام الاجتماعي على حركات الألفية. بدل التركيز على العمل السياسي الطويل الأمد على الأرض، معظم منظّمات وناشطي الألفية مهووسين باكتساب الظهور الإعلامي والانتشار الواسع على الإعلام الاجتماعي، كأن هذه الأمور هي أهداف بحد ذاتها، لا وسيلة لهدف أكبر. كنتيجة، هنالك عمليّة استبدال مستمرّة للتخطيط والعمل الطويل الأمد بتحرّكات قصيرة الأمد لا تمتلك أي تأثير على الواقع سوى أنها تكتسب شعبية الكترونيّة أكبر.

العديد من الحركات تهمل اليوم العمل الطويل الأمد لصالح تحرّكات فوريّة تحصل على اهتمام اعلامي أو الكتروني، كتظاهرة أو اعتصام. حتى إن تعريف النضال السياسي نفسه بات مرتبطاً بالظهور الالكتروني، كالحضور في أي تظاهرة عشوائية نُدعى إليها على فايسبوك. أولئك الذين يعملون على مشاريع طويلة الأمد في الظلال من دون أن يبرزوا أنفسهم على شبكات الاعلام الاجتماعي لا يتم اعتبارهم أحياناً جزءاً فاعلاً من مجتمع الناشطين.

هذا السعي المستمرّ نحو الظهور الالكتروني والإعلامي أثر سلبياً على قدرة العديد من الحركات على القيام بعمل استراتيجي حقيقي، كما أنه سهّل على السلطات تعقّب ومراقبة الناشطين والحركات السياسية. موروزوف يتحدّث عن هذه القضية بالتفصيل في كتابه، ويعطي مثال الانتفاضة الخضراء الفاشلة في إيران عام 2009: "(الناشطون) أعطوا الأجهزة السرّية الإيرانية منصّات استثنائية لجمع المعلومات بشكل مفتوح حول الثوريين المقبلين... ذات مرّة، كانت الأنظمة مضطرّة لممارسة التعذيب للحصول على هذا النوع من المعلومات؛ اليوم، هذه المعلومات متاحة بشكل مجّاني"[25].

النضال الالكتروني الكسول Slacktivism

السلاكتيفيزم – أو النضال الالكتروني الكسول – يُعرّف على أنه الانخراط في نشاطات الكترونية (عبر النقر على فأرة الكمبيوتر بشكل أساسي) مرتبطة بالقضايا العامة من دون أن يكون لهذه النشاطات تأثير فعلي على الواقع، لكن عادة ما يتمّ تقديمها على أنها "نشاط الكتروني".

بكلمات المؤلف مالكوم غلادويل، "الإعلام الاجتماعي يقود إلى نوع من النضال السلبي، أو النضال خلال الجلوس على كرسي، عبر تسهيل عمليّة التعبير الذاتي للناشطين، لكنه يجعل من الصعب لعمليّة التعبير هذه أن يكون لديها أي أثر على الواقع"[26].

السلاكتيفيزم منتشر بقوّة اليوم لدرجة أنه من الصعب تقدير العدد الحقيقي لمؤيدي قضيّة ما بسبب التضخّم الزائف الذي تعطيه الأدوات الالكترونية لحركات الألفيّة. يمكن لحركة ما أن يكون لديها 10 آلاف مشجّع على صفحتها على فايسبوك فيما يكون لديها فقط خمس أعضاء فاعلين على الأرض. دعوة لتظاهرة على فايسبوك يمكن أن تصل إلى تأمين موافقة 50 ألف شخص لحضورها، لكن في يوم التظاهر نرى 400 شخص فقط.

للأسف، السلاكتيفزم ليس محدوداً في أوساط الناشطين الفرديين فحسب حيث بتنا نرى حركات بأكملها يقتصر عملها على النشاطات الالكترونية.

التشوّش بين الأدوار الالكترونية والادوار النضالية على أرض الواقع

خلال الاضطراب السياسي والانتفاضات التي انتشرت في أوروبا الشرقية والشرق الأوسط منذ عام 2005 مروراً بالعام 2011، سرق المدوّنون، مستخدمو تويتر، والناشطون الالكترونيون الأضواء في الإعلام الغربي على أنهم الناس الذي كانوا ينظّمون ويحرّضون الثورات على الأرض. واستمرّت هذه الظاهرة من بعدها حيث تم التعامل مع الناشطين الالكترونيين على أنهم طليعة التغيير الاجتماعي والثورة حتى يكاد يصبح ذلك حقيقة لا نقاش فيها في الإعلام المحلّي ودوائر الناشطين على السواء. كنتيجة، العديد من الناشطين الالكترونيين يجدون أنفسهم من وقت لآخر في أدوار قياديّة خارج الانترنت بسبب وجودهم الالكتروني البارز.

خلال الانتفاضات العربية في العام 2011، وجد العديد من المدوّنون ومستخدمي تويتر ومديرو صفحات فايسبوكيّة أنفسهم يشاركون في أدوار قياديّة في ثورة حقيقيّة بسبب دورهم الالكتروني. لكن، في العديد من الحالات، أثبت الواقع أن ذلك كان سيئاً لحيويّة الحركة بشكل عام. فالمهارات، الثقافة، والعادات التي يكتسبها الناشطون الالكترونيون هي مختلفة بالكامل عن ما تحتاجه الحملات الناجحة خارج الانترنت. نحن نناقش لنقول أنه لا يمكننا أن نكون حتى ناشطين فعليين إن كان كل نشاطنا في الحياة متمحور أو مرتبط بالانترنت، وإن كنا نتصل بشبكات الإعلام الاجتماعي لـ 12 ساعة في اليوم، فكيف إن كنّا نتحدّث عن أدوار قياديّة؟

الوجود الالكتروني البارز والقيادة على أرض الواقع تحتاجان لمجموعتان مختلفتان من المهارات، ومن النادر جداً أن نجدهما في شخص واحد. ظاهرة وجود الناشطين الالكتروني في واجهة الصراعات النضالية تعزّز في الواقع كل الظواهر التي تحدّثنا عنها في هذا الفصل في صفوف الحركات التغييرية، وخصوصاً ظاهرة غياب الثقافة السياسيّة وتشظّي الجهود.

محوريّة الانترنت في النشاط السياسي الألفي كان لديها نتائج سلبيّة جداً على حركة التغيير حتى الآن، فهي تحوّل الطريقة التي نقوم بها بالعمل النضالي من التركيز على الأهداف والعمل البعيد الأمد على الأرض إلى التركيز على التحرّكات القصيرة الأمد، السلاكتيفيزم، والتنافس على البروز الالكتروني. قد يبدو من الساذج القول أن صورة رائعة ليافطة ذكية ما على فايسبوك مع آلاف اللايكات ليست كافية لتحقيق التغيير الاجتماعي، لكن للأسف، العديد من أبناء جيلنا الرقمي سيجدون الجملة الأخيرة غريبة جداً.

IV

من المناضلين إلى الموظّفين

ظاهرة النشاط المحترف

الإعلام الاجتماعي الجديد ساهم جزئياً بظهور نوع جديد من النضال وغيّر بنية العديد من المنظّمات وحتى كيفية رؤيتنا للنشاط السياسي. هذا النوع الجديد من النضال يمكن أن نطلق عليه اسم "النضال المحترف"، لأنه يتم عبر أناس يعرّفون عن هويتهم أنهم "ناشطون"، ويعملون عادة في شبكات رخوة وواسعة من الأفراد، متركّزة غالباً في صفوف الطبقة الوسطى المدينيّة، ويقومون بنشاطات منخفضة المخاطر، وغير فعّالة بشكل عام.

النشاط السياسي بالنسبة للناشطين المحترفين ليس مجرّد فعل، بل هو هويتهم الشخصية، هو دور اجتماعي، وأحياناً هو مهنة تدرّ المال. بالنسبة للناشطين، النضال السياسي هو اختصاص عام أو ميزة فئة محدودة من الناس، وليس مرتبطاً بالضرورة بقناعاتهم الأيدولوجية أو بقضيّة معيّنة يؤمنون ويلتزمون بها.

في مقال طويل بعنوان "فلنتخلّى عن النشاط: نقد لعقليّة الناشطين في حركة النشاط المباشر"، الذي تُرجم للعديد من اللغات إثر نشره، يحلّل الناشط الاميركي الماركسي أندرو أكس مشهد النشاط السياسي المعاصر بعمق. يكتب أندرو:

"الناشط يتماهى مع ما يفعله ويعتقد أن هذا دوره في الحياة، كأنه عمل أو مهنة. الناشط هو متخصّص أو خبير في التغيير الاجتماعي"[27].

يتابع: "الناشط، بما أنه يعتبر نفسه خبير في التغيير الاجتماعي، يجزم بأن الآخرين لا يفعلون شيئاً لتغيير حياتهم وبالتالي يشعر أنه هنالك واجب أو مسؤولية للقيام بالنشاط نيابة عنهم. الناشطون يعتقدون أنهم يعوّضون عن نقص النشاط لدى الآخرين. تعريف أنفسنا كناشطين يعني أننا نقول أن نشاطاتنا هي التي ستجلب التغيير السياسي، وبالتالي نتجاهل نشاط الآلاف والآلاف من الآخرين الذي لا يعرّفون عن أنفسهم بذلك (...). النشاط مبني على سوء الفهم هذا الذي يقول أن الناشطون وحدهم هم من يحقّقون التغيير الاجتماعي"[28].

الناشطون المحترفون لا يمتلكون عادة قضيّة مركزية توجّه قراراته وجهودهم، لأن النشاط هو بحدّ ذاته قضيتهم. لذلك نجدهميعملون لكلّ القضايا في الوقت نفسه من دون الالتزام بأي قضية. الأسبوع النموذجي للناشط ممتلىء بالقضايا: يوم الاثنين يعملون مثلاً لقضية مرتبطة بحقوق المرأة، والثلاثاء تراهم يتظاهرون ضدّ شركة ما، والأربعاء تراهم يحتجّون على زيارة سياسي أجنبي ما، والخميس تراهم يدوّنون حول قضية بيئيّة.

الناشطون المحترفون يحتقرون الالتزامات الأحادية بقضيّة واحدة، ويتشاركون سوية مجموعة من القيم الغامضة لدرجة تسمح لهم بتبرير دعم (أو الامتناع عن دعم) أي قضية أو تحرّك. تعريفهم للنشاط غالباً ما يرتبط بمدى التزام الشخص وظهوره في التحرّكات العشوائية التي يقوم بها مجتمع الناشطين كالمسيرات والتظاهرات، وبأسلوب عيشه أيضاً. الناشطون المحترفون عادة ما يعتبرون أنفسهم متفوّقون على أولئك الذين يلتزمون بقضيّة واحدة؛ ويعتبرون أن التزامهم المطلق بكلّ القضايا هو شكل أسمى من النضال السياسي.

الكاتب اللبناني هاني نعيم يصف مشهد النشاط السياسي في بيروت بطريقة يمكن أن نجدها صالحة لوصف حالة النشاط المحترف في كل مكان:

"هنالك حالة من غياب التركيز في صفوف الناشطين. قدرة كل فرد على المبادرة للعمل من أجل قضيّة ما خلق الآلاف من القضايا والأنشطة. ففي اليوم الواحد، كل ناشط، أو من يعتبر نفسه أنّه ناشط أصبح معرّضاً لعشرات من القضايا اليوميّة، التي تبدأ من المطالبة بحماية حديقة في مدينته وصولاً إلى دعم حركة "احتلوا وول ستريت" في الولايات المتّحدة، مروراً بقوانين منع التدخين، قمع الحريّات، هدم الأبنية التراثيّة، المطالبة بالكهرباء، تحرير فلسطين، دعم الإنتفاضة السوريّة، الدفاع عن حقوق العمّال الأجانب، وغيرها من القضايا التي إذا ما أردنا تعدادها لن ننتهي. هذا الكم الهائل من القضايا لا يُمكن لناشط واحد أن يقوم بمتابعة جميعها، إذا ما اعتبرنا أنّه يُريد أن يُغيّر بشكل حقيقي، وفاعل"[29].

إلى ذلك، يبدو أن الناشطون المحترفون غير مهتمّين حقاً بتحقيق تغيير اجتماعي وسياسي. بكلمات أندرو أكس مجدداً:

"النضال الثوري المزعوم للناشط هو روتين ممل وعقيم – هو تكرار مستمّر لبضعة تحرّكات من دون قدرة على تحقيق التغيير. الناشطون قد يقاومون التغيير إن أتى لأنه يهدّد الافتراضات السهلة حول دورهم والمجتمع المتميّز الصغير الذي أوجدوه لأنفسهم. مثل رؤساء النقابات، الناشطون هم ممثّلون للناس إلى الأبد ووسطاء. وبنفس الطريقة التي سيكون بها رؤساء النقابات ضد عمّالهم إن نجحوا حقاً في صراعهم لأن ذلك سيطيح بدور رؤساء النقابات، دور الناشط مهدّد بالتغيير الحقيقي. بالفعل، الثورات، أو أي تحرّك في هذا الاتجاه، سيؤدي إلى امتعاض الناشطين بعمق لأنه سيحرمهم من دورهم"[30].

لهذه الأسباب نادراً ما يأخذ الناشطون خطوة للوراء لتقييم عملهم وإعادة النظر باستراتيجيّتهم؛ فهم يقومون بالنشاط – يمارسون دورهم الاجتماعي – كل الوقت. يشير مؤلف "فلنتخلّى عن النشاط" أن "جزء من كون المرء ثورياً يعني معرفة متى يجب التوقّف والانتظار. من المهم أن نعرف كيف ومتى نضرب لتحقيق الفعاليّة القصوى ومن المهم أيضاً معرفة كيف ومتى لا نضرب. الناشطون لديهم ذهنيّة "علينا فعل شيئاً الآن!" التي يبدو أنها تتغذّى من الشعور بالذنب. هذه الذهنية غير تكتيكيّة أبداً".

بشكله الحالي، النشاط هو أداة الناشط المحترف للتعبير عن هويته الاجتماعية، وليس أداة لربح الصراعات والقضايا. كما في أي مهنة تخصّصية أخرى، يعمل الناشطون على تحسين صورتهم الشخصية وبناء سجلّ محترف من النشاط السياسي. يتعاملون مع النشاط كأنه مهنة لديها منافع اجتماعيّة وماديّة أكثر مما يتعاملون معه على أنه قتال للانتصار بصراع. العديد من الناشطين يحصلون على لقمة عيشهم من النشاط عبر التحوّل إلى موظّفين في المنظّمات غير الحكومية المموّلة جيداً.

في هذه الأيام، غالباً ما ينخرط الناشطون في منافسات لاكتساب الشعبية الاكترونية والإعلامية، ولإبراز أنفسهم على أنهم المثال الأعلى للناشط. في العديد من الأوقات، الناشطون الأفراد لديهم شهرة إعلاميّة أكثر من المنظمات التي يقودونها، لأن التركيز هو عليهم، لا على ما يقومون به. هذا النوع من النشاط يؤثّر أيضاً على العديد من أبناء الجيل الشاب الذين يرونه على أنه النموذج الناجح للنضال السياسي ويحاولون تقليده مما ينشر فكرة "الناشط الناجح" أكثر وأكثر. مفهوم "الناشط الناجح" و"الناشط الحقيقي" هو مفهوم ينتشر بخطوات ثابتة اليوم على امتداد مشهد النضال السياسي ويكتسب في بعض الأماكن أهمّية أكبر من فكرة "الحركة الناجحة"، أو حتى فكرة القضية نفسها. الناشطون المحترفون لا يلاحظون خطورة ذلك لأنهم غير مهتمّين بربح القضايا أساساً، فهم مهتمّون فقط بإطلاق التصريحات والمواقف والحصول على المزيد من الشهرة الشخصية.

هذه التجزأة للجهود وتوزيع الطاقة على عدّة جبهات في الوقت نفسه قلّصت كثيراً من فعالية الناشطين، الحركات، والتحرّكات. كما يقول أحد المدوّنين:

"كل هذا الضجيج غير الفعّال هو إلهاء ضخم عن محاولة إصلاح المعضلات البشرية الكبرى"[31].

هذا النوع من النشاط المحترف خلق أيضاً هوية تسويقيّة محدّدة جداً للناس المهتمين بالتغيير الاجتماعي، وخلق بالتالي هوّة بين الناشطين المحترفين وبقيّة الناس. هذه الهوّة وسّعتها العزلة الاجتماعية للناشطين المحترفين التي تبعدهم أكثر فأكثر عن قضايا الناس الحقيقيّة. أندرو أكس يعبّر عن ذلك بالقول أن "دور الناشط هو بحد ذاته عزلة مفروضة ذاتياً تجاه كل الناس الذين من المفترض أن يتواصل معهم"[32].

كما نلاحظ في كلّ مكان، الناشطون المحترفون غير قادرين على تحقيق معظم أهدافهم المعلنة، وذلك يعود إلى عدّة عوامل، أحدها هو شكل النشاط السياسي الحالي نفسه. فهذا الذي الشكل يقوم على ناشطين محترفين أفراد غير منتظمين في حركات سياسيّة قوية ويتعاملون مع النضال على أنه هوية اجتماعيّة، هو ظاهرة جديدة نسبياً. لا يوجد أي سابقة تاريخية في أي بلد في العالم تقول أن هذا الشكل من النضال السياسي حقّق نتيجة. أكس يشير إلى أن "النشاط المذكور هو في الأساس شكل سياسي وأسلوب عمل يناسب الليبرالية الإصلاحية، ويتم دفعه اليوم إلى أبعد من قدراته ومحاولة استخدامه لأهداف ثورية"[33].

لذلك، بدلاً من المراهنة على أن الشكل الحالي للنشاط التغييري سيحقّق نتائج أبعد من قدراته، علينا أن نتجاوز هذا النموذج لكي يكون بامكاننا تحقيق تغيير حقيقي.

لكن هذا لا يعني أن المهمة المذكورة هي مهمّة سهلة، فالشكل الحالي من النشاط لديه مشاكل بنوية أعمق – أو كما سنشرح في الفصل التالي، لديه مشاكل لابنيويّة أعمق نتحدّث عنها الأسبوع المقبل.

V

أنكون كالماء أم كالصخر؟

معضلة اللاتنظيم في النشاط التغييري

انتفاضات العام 2011 وما بعده تم تمجيدها من قبل العديدين بسبب طبيعتها اللابنيوية المتمثلة بغياب التنظيم، غياب القادة، وغياب البرامج والرؤى. تم اعتبار اللابنيوية على أنها الظاهرة الأكثر تعبيراً عن كون الانتفاضات "من الشعب" – وبالتالي تم الافتراض بأن نتيجتها ستكون بالتأكيد "من أجل الشعب". لكن القليلون انتبهوا إلى أن اللابنيوية كانت في الواقع إحدى نقاط الخلل الكبرى التي أدت إلى فشل معظم الانتفاضات. اللابنيوية عرقلت معظم الثورات في العالم العربي خلال العامين الماضيين من تحقيق أهدافها، عجّلت نهاية حركات شعبية أخرى مثل احتلوا وول ستريت في الولايات المتحدة، وسمحت للسلطات وبقية الأحزاب السياسية المنظّمة بالاستيلاء على الثورات وأخذها في الاتجاه المعاكس لهدفها.

في العالم العربي، جميع الانتفاضات اللابنيوية تقريباً انتهت بتعبيد الطريق للإسلاميين المنظّمين للإستيلاء على الحكم منذ أولى لحظات انهيار الأنظمة القديمة. لسخرية القدر، الرابحون الوحيدون من الانتفاضات اللابنوية كانوا القوى السياسية البنيوية والمنظّمة.

رغم ذلك، قامت العديد من حركات الألفية وناشطيها – وخصوصاً في صفوف التيار اللاسلطوي – باستنتاج درس معاكس من انتفاضات عام 2011 الفاشلة. الهبات الشعبية "العفوية" يتم تمجيدها على أنها الشكل النموذجي الجديد لثورات القرن الواحد والعشرين فيما تعامل أمور كالبنية والتنظيم على أنها مرادفة للقمع، السلطوية، البيروقراطية، انعدام المساواة وكل الكلمات السيئة الأخرى.

اللابنيوية على الجهة الأخرى يتم تقديمها على أنها مرادف للحرية، الفردانية، الفعاليّة، وكل الأمور الجيّدة. التيارات الأنركيّة والنسوية الحالية هي معادية بشكل خاص للبنيوية والتنظيم وتدعو عادة إلى لابنيوية تامّة وغياب كامل للقادة.

لكن الواقع يقول أن اللابنيوية تحقّق دوماً عكس الهدف الذي تبغاه. كما لاحظت المؤلفة والناشطة النسوية جو فريمان في السبعينات:

"لا يوجد شيء اسمه مجموعة من دون بنية. أي مجموعة من الناس من أية طبيعة كانت تأتي سوية لفترة من الوقت لتحقيق هدف ما ستقوم في النهاية المطاف بتنظيم نفسها بطريقة ما"[34].

فريمان تصف شوائب اللابنيوية بكلمات دقيقة:

"فكرة اللابنيوية تصبح ستاراً للأقوياء أو المحظوظين لإحكام السيطرة المطلقة على الآخرين. وهذه الهيمنة يمكن تحقيقها بسهولة لأن فكرة اللابنيوية لا تمنع قيام البُنى غير الرسمية، بل تمنع فقط قيام البُنى الرسمية. وبالتالي تصبح اللابنيوية أسلوب لتمويه وجود السلطة، وداخل حركة النساء، اللابنيوية مدعومة عادة بقوّة من اللواتي يمتلكن أكبر قدر من السلطة".

هذا يحصل لأن المجموعات التي تقبض على السلطة في الحركات اللابنيوية لا يمكن إقصائها ولا محاسبتها على القرارات التي تأخذها باسم المجموعة الأوسع.

إلى ذلك، اللابنيوية لا تنجح لأنها تقوّي بُنى الامتياز والسلطة غير الرسمية ولأنها تجعل أيضاً من التخطيط الاستراتيجي والتطبيق المنظم للاستراتيجيا عمليّة مستحيلة. لقد تم لفت النظر من قبل العديد من الناشطين في العالم العربي إلى أن اللابنيوية جعلت العناصر العلمانية، اليسارية والليبرالية التي أطلقت الثورات، في موقع ضعيف مقابل الحركات الإسلامية المنظّمة والرؤيوية التي استطاعت استلام السلطات ما أن هدأ غبار الثورات. الأمر نفسه لوحظ من قبل بعض المؤلفين والناشطين الغربيين على أنه السبب الذي أدى إلى تضاؤل واختفاء حركة احتلوا وول ستريت من دون تحقيق أي نتيجة.
مدير التحرير في المجلة اليسارية الأميركية "ديسينت"، مايكل كازين، أشار إلى أن "المجال المفتوح لهذه الحركة التي يغيب عنها القادة هو بحد ذاته ما جعل من الصعب المحافظة عليها. من دون بنية، من شبه المستحيل الخروج باستراتيجية للحركة، والقرارات التكتيكية يمكن بسهولة أن يتم تطبيقها بشكل خاطىء"[35].

فريمان أيضاً تحدثت عن عدم قدرة اللابنيوية على الخروج باستراتيجيات فعّالة:

"كلما كانت حركة ما لابنيوية، كلما كان لديها تحكّم أقل بالاتجاه الذي تأخذه وبالتحرّكات السياسية التي تشارك فيها... إن كان هنالك اهتمام من الإعلام والظروف الاجتماعية المناسبة، سيتم انتشار أفكار الحركة بشكل واسع. لكن انتشار الأفكار لا يعني تطبيقها؛ إنه يعني فقط أن هذه الأفكار موجودة في النقاشات. إن كانت الأفكار يمكن تطبيقها على الصعيد الفردي، يكون بالإمكان تطبيقها؛ لكن حين يتعلّق الأمر بالحاجة لجهود سياسية منظّمة لتطبيقها على مستوى واسع، لن يتم تطبيقها"[36].

اللابنيوية لم تنجوا حتى من انتقادات بعض الناشطين والمدوّنين الأنركيين اللاسلطويين الذين انتقدوا الطبيعة المفتوحة للحركة واعتبروها نقطة ضعفها الرئيسية. في تقييم لما حدث لحركة احتلوا وول ستريت بعد عام واحد عليها، المدوّن الأنركي "كولين أو" استنتج أنه "لا يبدو أن أي من المجموعات المختلفة لحركة احتلوا أنشأت منظمات مستدامة قادرة على الاستمرار بمقاومة البنى التي تسبب التفاوت الاجتماعي التي برزت حركة احتلوا لمحاربتها في الأساس. لذلك وفيما قد نكون ألهمنا أنفسنا، وهذا أمر مهم، لا يبدو أننا انتشرنا أكثرنا بتنظيمنا أو اكتسبنا المزيد من القوّة الجماعيّة"[37].

هذا التحليل يتناغم مع عودة الاهتمام بإعادة النظر في أساليب التنظيم اللاسلطوية بعد عداء أنركي مزمن تجاه التنظيم الواسع. العديد من المجموعات الأنركية في المتوسّط على سبيل المثال كانت تحاول في وقت كتابة النصّ خلق شبكات أوسع أكثر تنظيماً. وفي الوقت الذي كُتب فيه هذا الفصل، كانت العديد من المجموعات الأنركية الأميركية تعيد النظر بموقفها من التنظيم وبعضها يعمل على إنشاء منظّمة أميركيّة موحّدة تمتلك مراكز تنسيق مركزيّة.

في مقال بعنوان "تنظيم وطني للأنركيين الثوريين في الولايات المتحدة؟"، تعدّد مجموعة روشستر الأنركية أسباب إقامة منظّمة أنركية موحدة وهي أن هكذا منظمة تمتلك قدرات أكبر في مجال البروباغاندا الجماهيرية، تستطيع تحقيق تضامن سياسي أوسع وأقوى، وتسهّل بناء وتوسيع الفروع المحلّية، وتفتح المجال أمام مستويات مختلفة من الانخراط في العمل العام أمام الناس، وتردم الانقسام المديني – الريفي في أوساط الناشطين، ويكون لديها القدرة على القيام بتعبئة شعبية أوسع ويكون بمتناولها موارد أكثر، وكنتيجة يكون لديها تأثير أكبر على السياسات العامة على المستوى الوطني[38].

رغم هذه الملاحظات، يبدو أن الانبهار باللابنيوية هو ظاهرة قوية جداً في صفوف النشاط التغييري الألفي، وذلك يغذّي مجموعة من الافتراضات التي تؤثر بشكل عميق على أسلوب تنظيم أنفسنا اليوم. لنلقِ نظرة على ثلاث منها:

الافتراض الخاطىء الأول: الشبكة الواسعة هي أفضل من الحركة المنظّمة

الشبكات هي مكوّنة عادة من عدد كبير من الأفراد الذي يمتلكون فيما بينهم صلات ضعيفة، من دون قيادة مركزية تستطيع حسم القرارات أو وضع الاستراتيجيات. هذا يجعل الشبكة أكثر انفتاحاً تجاه انخراط الجميع في نشاطها، وتستطيع الوصول إلى عدد كبير من الناس بسهولة، ما يجعلها فعّالة في الظروف التي لا تتطلّب نشاطات ذات مخاطر عالية كنشاطات بناء الوعي، توقيع العرائض، والقيام بتظاهرة أو اعتصام.

لكن الصفات نفسها التي تعطي أسلوب الشبكة قوته تجعلها غير فعّالة في وضع وتطبيق استراتيجيات بعيدة الأمد أو الاضطلاع بنشاطات دقيقة فيها مخاطر عالية. المؤلف مالكوم غلادويل يشير إلى أن:

"الشبكات لا تستطيع التفكير استراتيجياً؛ هي معرّضة بشكل دائم للنزاعات والخطأ. كيف يمكنك اتخاذ قرارات صعبة فيما يتعلّق بالاتجاه الفكري أو الاستراتيجي حين يكون الجميع لديهم صوت متساوٍ؟"[39].

غلادويل يعدّد في ذات المقالة كيف أن مقاطعة باصات مونتغمري والحركة المدنية الأميركية في الستينات في الولايات المتحدة نجحت في إعطاء السود حقوقهم لأنها ارتكزت على أشكال مركزية من التنظيم "كانت تشدّد على الانضباط والاستراتيجيّة".

الافتراض الخاطىء الثاني: لا يمكن الثقة بالقادة ويجب رفض أي نوع من القيادة

بقدر ما هو التنافس على البروز الفردي قوي في أوساط الناشطين العصريين، بقدر ما يوجد هنالك عداء حاد تجاه القيادة وتجاه القادة المحتملين في أوساطهم. مجتمع الناشطين في كل مكان ممتلىء بشكل مستمر بخوف صريح أو ضمني من أن يكون هنالك قادة، رغم أنه هنالك عدد غير مسبوق من الناس يتنافسون على أدوار القيادة.

مسابقة البروز يمكن أن تكون إحدى العوامل التي تغذّي العداء تجاه القبول بأي نوع من القيادة من أي شخص آخر. الثقافة الفردانيّة الشديدة التي يتميّز بها أبناء جيلنا الشاب بالإضافة إلى الأمثلة التي لا تحصى عن سوء استخدام القادة لمنصابهم وسلطتهم، هي أيضاً عوامل أخرى تغذّي الظاهرة.

غياب الثقة في فكرة القيادة تجد تعبيراً لها في العداء الشديد تجاه المنظّمات التي تمتلك قادة واضحين وتجاه الأشخاص الذين يقدّمون أنفسهم كقادة أو يكتسبون سلطة القادة خلال حدث ما. أي منظّمة تمتلك قيادة واضحة يتم اتهامها في أوساط الناشطين الألفيين أنها "طائفة عبادة شخص"، رغم أن الواقع يقول أنها وحدها المنظمات التي امتلكت قيادة جيدة حقّقت نتائج في التاريخ.

هذا العداء تجاه القيادة يعرقل قدرة الأوساط الناشطة على تغذية وإنشاء قادة حقيقيّين، وهي تحرم حركات المقاومة من إحدى الأدوات الرئيسية الضرورية لنجاحها. المنظومة العالمية المهيمنة تواجهنا بقادة متشدّدين مدربّين ومتلزمين بقضيتهم، كالوزراء وموظفي الدولة ومدراء الشركات ورجال الدين، الذين يمتلك كل منهم دعم مؤسسات منظّمة ومنضبطة، فيما نحن نخوض حروباً داخلية طاحنة لإلغاء ظهور أي قياديين حقيقيين في صفوف حركاتنا.

إن كنّا نريد أن نصل إلى المستوى التالي في معركتنا مع السيستيم، علينا أن نتغلّب على خوفنا من أن يكون هنالك قادة: نحن نحتاج لمنظّمين ورؤيويين ومحرّضين وأشخاص ماهرون في خلق وإدارة الطاقة والموارد التي نحتاجها لتحقيق أهدافنا.

الافتراض الخاطىء الثالث: أفضل طريقة لاتخاذ القرارات في الحركة هي عبر الإجماع

تبجيل شكل اتخاذ القرارات عبر الإجماع على أنه الشكل الأفضل لصناعة القرار في حركات التغيير هو الوجه الآخر لرفض القادة وتفضيل الشبكات غير المنظّمة.

معظم المجموعات الأنركية والنسوية تستخدمه، ولقد تم استخدامه بكثافة في الانتفاضات الشعبية في العام 2011. واستُخدم حتى في منظّمات أكثر جذرية مثل Earth First! (الأرض أولاً) وجبهة تحرير الأرض ELF.

العالم الأنتروبولوجي والناشط الأنركي الأميركي المعروف ديفيد غرايبر يشرح صناعة القرار بالإجماع التي تتبعها المجموعات اللاسلطوية كما يلي:

"الفكرة الأساسية للإجماع هي أنه بدل التصويت، عليك أن تخرج باقتراحات مقبولة من الجميع – أو على الأقل اقتراحات لا يعترض عليها أحد بشدّة. تقوم أولاً بإعلان الاقتراح ثم تسأل عن الهواجس وتحاول أن تجيب عليهم. غالباً، في هذه النقطة، سيستجيب الناس عبر إضافة تعديلات طفيفة وإيجابية على الاقتراح الأساسي، أو تعديله، للاستجابة للهواجس التي يطرحها المعترضون. وفي النهاية، حين تطلب الإجماع، تسأل إن كان هنالك أحد يريد إيقاف الاقتراح أو التنحّي. التنحّي يعني أنك تقول أنني لا أوافق شخصياً على المشاركة في هذا النشاط، لكني لن أوقف الآخرين من ذلك. أما إيقاف الاقتراح فهو طريقة القول بأنني اعتقد أن هذا الاقتراح يخرق المبادىء الأساسية التي تقوم عليها المجوعة أو هدفها، وهو يعمل كفيتو: يمكن لشخص واحد أن يوقف أي اقتراح بشكل كامل"[40].

شوائب هكذا شكل لصناعة القرار هي واضحة: الإجماع يمكن أن يعمل في مجموعات صغيرة تمتلك أهداف واسعة وعلاقات شخصية جيدة في وسطها، لكنه مرهق وغير فعّال حين يكون الهدف هو وضع خطط طويلة الأمد واستراتيجيات لمنظمّات كبيرة. القرارات والاستراتيجيات التي تُصنع بالاجماع تكون عادة الاقتراح ذات السقف الأدنى الذي يناسب جميع الحاضرين، وعادة ما يعني ذلك أن الاستراتيجية أو النشاط النهائي الذي يتم إقراره هو عملياً لاشيء.

إلى ذلك، من الصعب جداً تحقيق الإجماع ضمن مجموعات كبيرة من الناس كما أن هذه الطريقة بصناعة القرار لا تضمن بأن جميع الناس يشاركون في صناعته حقاً. ففي معظم الحالات، هنالك أقلية من الأفراد الأكثر تحدثاً أو الأعلى صوتاً أو الأكثر حضوراً في الاجتماعات هي التي تحدّد فعلياً القرارات للمجموعة. من شبه المستحيل أيضاً دراسة وإقرار الاستراتيجيات الدقيقة للقيام بتحرّكات ذات مخاطر عالية لمنظمات كبيرة عبر أسلوب الإجماع.

محاسبة القادة هي أيضاً مسألة صعبة جداً في ظلّ الإجماع؛ فإن كانت المجموعة ككل هي المسؤولة عن كل القرارات، من ستتم محاسبته إذاً وأمام من إن حصل خطأ ما؟ وماذا يبقى من مبدأ المحاسبة حتى في هكذا حالة؟

VI

انتظار القيامة الجماهيرية ومعضلة الحلول الفرديّة

ثورة الملايين أتت عدّة مرات وذهبت، ولم تنقذنا...

في ظلّ التحولات التي يشهدها مشهد النضال السياسي، هنالك تحوّل يطال أيضاً رؤيتنا لكيفية تحقيق التغييرات المنشودة. مشهد النشاط التغييري اليوم تتنازعه فكرتان غير واقعيّتان: الفكرة الأولى تقول أنه هنالك ثورة جماهيرية مثالية ستأتي يوماً ما لتنقذنا جميعاً ونعيش من بعدها بسعادة إلى الأبد، والفكرة الثانية تقول أن التغيّرات الكبرى سوف يتم تحقيقها عبر الخيارات الفرديّة البديلة التي نأخذها كأفراد اليوم. قد يبدو لنا للوهلة الأولى أن الفكرتان متناقضتان، فالأولى جماهيرية والثانية فرديّة، لكنها في الواقع فكرة واحدة: الانتظار، أو بتعبير آخر الرهان على الأعمال الفرديّة بانتظار حدث غامض في المستقبل نؤمن به إيماناً دينياً صرفاً.

هذه الأيدولوجية المزدوجة تعبّر عنها المقولة المكرّرة كثيراً اليوم في أوساط الناشطين والمنسوبة لرائد اللاعنف الهندي مهاتما غاندي "كن التغيير الذي تريد ان تراه في العالم – Be the change you want to see in the world. وفقاً لمؤيدي هذا الطرح، بانتظار الثورة الكبرى، يجب أن يقوم المزيد من الناس باتخاذ نفس الخيارات البديلة في حياتهم الشخصية – مثل القيام بالزواج المدني بدلاً عن الزواج الديني، العمل بتعاونيّات بدلاً من العمل بمؤسسات رأسمالية، التسامح تجاه الطوائف الأخرى بدل التشدد الديني، شراء المنتجات المحلية بدل المنتجات الاجنبية، تخفيف استهلاك الكهرباء واستخدام الدراجة بدل السيارة للتنقّل...ألخ. وفقاً للأيدولوجية، هذه الخيارات سوف تخلق في يوم ما "كتلة حاسمة" (الجماهير مجدداً) ستكون كافية لتحقيق تغييرات جذرية على أرض الواقع في كلّ المجتمع. البعض يرى أن الكتلة الحاسمة سوف تعبّر عن نفسها على شكل ثورة على السلطات، والبعض يرى أنها ستكون أكثر سلميّة وتدرجاً – لكن الجوهر في الحالتان واحد.

الحركات النسوية واللاسلطوية تركّز حالياً بشكل كبير على هذا الطرح؛ فالنساء عليهن تغيير أسلوب تفكيرهنّ ونمط حياتهنّ وطريقة تعاطيهن مع أنفسهنّ والآخرين (وهذا صحيح لكنّه يجب أن يكون الخطوة الأولى فقط) ، واللاسلطويون عليهم أن يعيشوا خارج هرميّة السلطات القمعيّة في العمل والمدرسة والمجتمع قدر المستطاع (وهو أمر مستحيل). معظم الحركات البيئية التقليدية بدورها تضع فلسفة الخيارات الفردية وانتظار القيامة الجماهيريّة في قلب استراتجيتها، وتدعو الناس لاتخاذ خيارات "خضراء" في حياتها كشراء السيارات الكهربائية والمنتجات الصديقة للبيئية – وهو فعل يؤدي إلى استمرار نفس الآلة الصناعية الانتاجية التي تسبّب الأزمة في الأساس. العديد من الحركات اليسارية (وخاصة الغربية منها) انزلقت أيضاً إلى هذه الطريقة في التفكير وباتت تشدّد على الخيارات الفردية كتكتيك مواجهة مع النظام الرأسمالي، ومنها الامتناع عن الاستهلاك، التسوّق محلياً، التهرّب من الضرائب، والمقاطعة الاقتصادية لبعض الشركات...ألخ.

العديد من المنظمات كحركة المقاومة الخضراء العميقة وحركات أخرى لاحظت مكامن الخلل في هذه المقاربات وتنتقد كل المنهج المذكور. المشكلة في مقاربة "العمل الفردي-الانتظار الجماهيري" هي أنها لا ترتكز على التغيير المنهجي المنظّم في البنى التي تسبّب المشكلة، بل تهدف ببساطة إلى "نشر المزيد من الحقائق حول أفضل الخيارات الفردية التي يجب تبنّيها من قبل الناس لحلّ المشكلة"، بحسب تعبير أحد محلّلي هذه الاستراتيجية. يتابع: "يمكن اختصار (هذه المقاربة في النضال) بـ: إيجاد الحقيقة، نشر الحقيقة، والتشديد على الحقيقة"[41]. الاستراتيجية تتمحور إذاً حول نشر المعلومات لا حول العمل المنظّم الفعّال.

حين تفشل هذه المقاربة بتحقيق نتائج، عادة يكون خيار أصحابها هو القيام بالمزيد من الأمر نفسه. مع الوقت، هذا التشديد على الخيارات الفردية يصبح متماثلاً مع أسلوب التشديد الديني على "النقاء الحياتي" في الممارسات اليوميّة ما يغرق حركة التغيير في عدائية أفقية وعداوات فردية لا طائل منها.

المؤلف دريك جنسن لاحظ أنه:

"ما أن تصبح عدائياً تجاه التنظيم والتفكير الاستراتيجي، الأمر الوحيد الذي يبقى لك هو التركيز على النقاء في أسلوب العيش الفردي"[42]. "الخيارات الفردية (كمقاربة تغييرية)"، يقول جنسن، "جلست مكان التنظيم في الكثير من مفاصل التفكير البيئي التقليدي. بدل معارضة الدولة-الشركة، تصرّ هذه المقاربة على أننا يجب أن نستعمل محارم ورقيّة أقل وأن نزرع القليل من الحدائق. هذا الموقف غير فعّال. حين تتخلّى عن التنظيم أو تكون عدائياً تجاهه، كل ما يبقى لك هو هذا التشديد العارم على النقاء الذي يصبح مع الوقت عقيدة جامدة. وتبدأ مثلاً بانتقاد الناس الذين يستعملون هاتفاً. هذا ينطبق مثلاً مع الخضريين وتشديدهم على الحمية الغذائية الفردية. وينطبق على الناشطين المعادين للسيارات العاملة على الوقود تجاه أولئك الذين يقودون سيارات...ألخ".

هذه الاستراتيجية بالكاد تلامس سطح الأمور ولا تستطيع حلّ مشاكل بنيوية منهجيّة نابعة من مؤسسات لا تستمدّ قوتها ولا سلطتها من الخيارات الفردية لمجموعة محدودة من الناس.

النتيجة الأخيرة لتطبيق هذه المقاربة هي دعوة عامة للناس بالانسحاب من السيستيم إلى زاوية بديلة، بدلاً عن مواجهته. بناء بدائلنا الحرّة بعيداً عن المنظومة المهيمنة هو بالتأكيد أمر مطلوب وهو استراتيجية جيّدة بشكل عام، لكنه غير ذي فائدة على الإطلاق إن لم يكن مترافقاً مع مقاومة فعّالة تعالج جذور المشكلة وتفكّك المؤسسات التي تقوم بجوهرها على العنف، الظلم، والتدمير.

هذا الإصرار على الحلول الفردية يؤدي إلى الخلط بين أسلوب الحياة الفردي والنضال السياسي. منذ أن أعلنت النسويّات الغربيّات أن "الشخصي هو سياسي"، أقنعنا أنفسنا بأن القيام بالمزيد من التغيرات الفردية والقليل من التنظيم السياسي هو أفضل لقضايانا. صحيح أنه من المهم أن نعيش حياة مسؤولة وواعية ومنسجمة مع قناعاتنا، لكن التغيرات في أسلوب العيش الفردي لا تعني أننا نظّمنا مقاومتنا ولا تستطيع تحقيق تحوّلات استراتيجية فعليّة لأن المواجهة هي مع مؤسسات لا مع أفراد – ولا يمكن مواجهة المؤسسات سوى بمؤسسات بديلة.

التحوّلات البنيوية لا يمكن تحقيقها سوى بمقاومة منظّمة وممنهجة. التغييرات الفردية في حياتنا الشخصية، مهما كان عدد الأشخاص الذين يتبنّوها، هي بكل بساطة ليست مقاومة منظّمة.

مليارات الدولارات التي تُصرف على التسويق على سبيل المثال، تعني أنه سيكون هنالك ملايين من الأشخاص الجدد يحلمون بشراء واستهلاك تلك السيارة الجديدة مقابل كل شخص يفكّر ببيع سيارته والتنقّل على درّاجة هوائية، فالخيارات الفردية والسلوك الفردي بشكل عام ينبعان من بنية المجتمع وليس العكس. إن كان المجتمع ومنظومته السائدة يقدّم خيار قيادة سيارة رياضية ويصرف الملايين لإقناع الناس بشرائها ويربطها بقيمهم وبرمزيّة مركزهم الاجتماعي، سوف يكون لديك مجتمع فيه الكثير من الناس الذي يطمحون لشراء سيارة رياضية وقيادتها بسرعة على الطريق، حتى ولو كانت كل سيارة جديدة تعني المزيد من التدمير البيئي والعنف الطبقي. كذلك الأمر إن كانت المنظومة السائدة لا تقدّم خيار امتلاك سيارة خاصة وتعتمد بالمقابل على العضلات البشرية أو الدراجات الهوائية أو النقل العام؛ سيكون أمام الأفراد حينها خيارات أخرى متاحة ومعظمهم لن يخطر على بالهم حتى أن امتلاك سيارة خاصة أمر ممكن.

هذا ينطبق على كافة الأمور الأخرى في المجتمع: إن كان السيستيم مبني على النمو، الربح، وتمجيد المال والممتلكات، معظم الناس سيدخلون إلى سباق الفئران بشغف لتحصيل المزيد من الأموال وامتلاك المزيد من الممتلكات (كما يحصل الآن). الأمر هو بهذه البساطة. أما إن كان المجتمع ومنظومته السائدة مبنيّان على الاستدامة، الروح الاجتماعية، وعلاقة بشرية صحّية مع الأرض والمخلوقات الأخرى، فإن معظم الناس سيتبعون هذه القيم بشكل فطري من دون سؤال. هنالك أمثلة تاريخية لا حصر لها تثبت صحّة هذه المقاربة.

للأسف، فكرة "الكتلة الجماهيرية الحاسمة" التي ستحقّق التغيير تقود إلى سوء فهم آخر ينتشر بقوّة من وقت لآخر وتعبّر عنه جملة "الناس تستيقظ". الإيمان بهذه الجملة هو أمر ضروري للإيمان بفكرة "القيامة الجماهيرية"، فكيف ستأتي القيامة إن لم تكن الناس تستيقظ؟

فلنعالج هذه الفكرة قليلاً ونفكّر باحتمال القيامة الجماهيرية الموعودة.

في كلّ مرة يظهر فيها بضعة آلاف من الناس في تظاهرة، يتحمّس اليسار والتيار المدني ليعلن بأنها بداية النهاية للرأسمالية، للرئيس، للنظام السياسي، أو للإمبريالية العالمية. لكن الحقيقة القاسية هي أن الناس لم تستيقظ، ولن تستيقظ على الأرجح، الناس هي بكل بساطة أكثر غضباً لأن الانحدار البطيء للحضارة الصناعية يأخذ ما تبقّى لهم من عيش وكرامة.

معظم الناس ليسوا غاضبين لأن النظام السياسي غير عادل أو لأن الشركات تدمّر الكوكب من أجل الربح. هم غاضبون لأنهم لا يستطيعون تحقيق مستوى الحياة الذي وعدتهم به الرأسمالية. هم غاضبون لأنهم لا يشعرون بالأمان في وظيفتهم. غاضبون لأنه لا يمكنهم شراء منزل الأحلام الذي وعدتهم به أفلام السينما. هم بتعبير آخر، غاضبون لأنهم مرتبطون بما تقدّمه لهم الدولة والسلطات الاقتصادية الحكومية من غذاء ومسكن في وقت لم تعد الدولة قادرة على تأمين أي شيء لمواطنيها. نعم، الكثير من الناس هم أكثر غضباً تجاه السلطات، والكثير من الناس مستعدّون للنزول إلى الشوارع الآن وخلال السنوات المقبلة، لكن للمطالبة بماذا تحديداً؟ هل غضبهم موجّه في الاتجاه الصحيح؟

الجماهير الغاضبة تستطيع بالتأكيد قلب نظام حكم وأكثر، ولقد قامت بذلك بالفعل، لكن كيف يحلّ ذلك معضلة السجن الكبير واحتضار الكوكب والسقوط البطيء للحضارة الصناعية؟ طالما أنه لا يوجد هنالك رؤيا تقود إلى تغييرات منهجية، الغضب سيكون مجرّد دورة أخرى تغذّي نفس رؤية السيستيم المهيمن على الكوكب.

معظم الانتفاضات الشعبية المقبلة لن تحصل لأن الناس تريد أن تغيّر الواقع، بل العكس تماماً: الانتفاضات تحصل وستحصل أكثر لأن الناس تعتقد أن تغيير الرؤساء أو الأنظمة سيساعدهم على استعادة الواقع القديم واستعادة مستوى معيشتهم والأمان الاقتصادي النسبي الذي عرفه آبائهم أو عرفوه هم في عقد التسعينات والنصف الأول من عقد الألفية. معظم الانتفاضات الشعبية لن يكون هدفها انقاذ غابات الكوكب أو بناء مجتمعات لاسلطوية أو إنقاذ المشرّدين، بل ستحصل لأن الناس لا تزال تلجأ للسلطات المركزية لتأمين احتياجاتها الأساسية في وقت لم يعد يمكن لأحد تأمين هذه الاحتياجات.

الحقيقة الأصعب في هذا المجال هي تقبّل فكرة أن الجماهير ليست هي من يحقّق عادة التغيير الاجتماعي والسياسي، بل المجموعات الصغيرة المنظّمة والأفراد الشجعان الذي عملوا لعقود قبل الانتفاضات الشعبية على إيجاد الظروف المناسبة للتغيير ونشر الوعي ومواجهة السلطات بشجاعة. لطالما تم إطلاق التغييرات السياسية الكبرى من قبل حفنة صغيرة من الأفراد الذي يعملون بطريقة منظّمة وعنيدة وشجاعة. الأبواب الأولى دائماً ما يفتحها قلّة، لكن نتائج صراعهم يستفيد منها الجميع.

ذهنيّة "الكتلة الجماهيرية الحاسمة" أدّت إلى وضع الحركات السياسية والبيئية في إطار استراتيجي غير قادر على تحقيق تغيير بنيوي، وسجنتهم في نوع واحد من النشاط: الحملات التي لا تنتهي لبناء الوعي والبهلوانات الاعلامية التي تعيد قول الأمر نفسه مراراً وتكراراً لجمهور غير مكترث.

الاكتفاء ببناء الوعي هو عملياً التحدّث مراراً وتكراراً عن أهمية العزف على آلة موسيقية معيّنة من دون محاولة التقاط هذه الآلة والضرب على أوتارها بأصابعنا نحن. وهنا نجد أنفسنا نتساءل: كيف يمكن لأي حركة جدّية أن تتوقع أن صفحة فايسبوك، ويب سايت، فيديو، أو احتجاج مع يافطات كبيرة، هي أمور تستطيع وحدها أن تربح الصراع الإعلامي في وجه الشركات والحكومات التي تمتلك ميزانيات تسويق بملايين الدولارات، وجيوش محترفة، وملايين الموظفين والأتباع المخلصين؟

الملايين يشاهدون برنامج "آراب آيدول"، أو يقضون أيامهم بزراعة الطماطم الافتراضية على فارم فيل أو يتصفّحون صور بيونسيه والقطط المضحكة على النت. نحن نعلم ذلك جيداً، لكن علينا أن نتقبّل ماذا يعنيه ذلك على الصعيد السياسي. إنه يعني أن القيامة الجماهيرية لن تأتي أبداً، والتغيّرات الفرديّة لن تغيّر شيئاً سوى إعطاء شعور جيّد لمن يقوم بها. نحن نحتاج لمقاومة منظّمة. الأمر بهذه البساطة.

VII

العالم من خلال نافذة صغيرة

مشكلة غياب المقاربات المنهجيّة الكبرى في الحركة التغييرية

إحدى أكثر الخصائص بروزاً في حركات التغيير الألفية هي غياب المقاربات المنهجيّة. قد يكون ذلك ردّة فعل على الميل اليساري السابق نحو الالتزام الأيدولوجي المطلق بعقيدة ماركسية تزعم أنها تجيب على كل الأسئلة، خاصة أن الفلسفة الماركسية أطّرت وجمّدت النقاش التغييري في العديد من الدول لعقود. وقد يكون الأمر أيضاً مجرّد نتيجة ثقافتنا السياسية المشتّتة وغير المتناغمة السائدة حالياً. في كلّ الأحوال، هذا الخلل يقوّض قدرة الناشطين وحركات التغيير على فهم ما يحصل في العالم ووضع استراتيجيات فعّالة يمكن أن تعالج جذور معضلاتنا الحالية.

غياب المقاربات المنهجية يمنع حركات الألفية بوضوح من الخروج من الدوّامة التي علقت بها منذ سنوات. الأمثلة كثيرة. معظم الحركات السياسية حول العالم تمتلك مثلاً مقاربة غير منهجيّة تجاه الحكومات والسلطة ولا تزال تعتبر أن السلطات السياسية يمكن أن تكون لبّ المشكلة أو لبّ الحلّ، من دون أن تعطي أي اهتمام للسياق الطاقوي والاقتصادي والبيئي والاجتماعي الذي يشكّل اليوم جذور كل المشاكل.

الحركات البيئية التقليدية أيضاً لديها حبّ خاص للمقاربات غير المنهجية رغم أن معظمها يزعم أنه يعالج جذر كل المشاكل المعاصرة. فهي تطلب من الشركات مثلاً – الشركات التي تحقّق أرباحها من تدمير الكوكب وبيعه كقطع خردة – أن تصبح صديقة للبيئة. هي تتوقّع من الحكومات – التي تكتسب شرعيتها من قدرتها على تحقيق النموّ الاقتصادي – بإيقاف النموّ. هي تطالب بالمزيد من السيارات الكهربائية في الشوارع فيما الكهرباء التي ستحتاجها هذه السيارات ستأتي من نفس مصادر الطاقة الكربونيّة الملوثّة.

مثال آخر هو بعض الحركات النسوية التي ترفض التعامل مع حقيقة أن فتح أبواب سوق العمل أمام النساء من الطبقة الوسطة جعل الوضع أسوأ بكثير لملايين النساء من الطبقات الدنيا (وخصوصاً في بلدان العالم الثالث) التي دخلت على أثر ذلك في حالة تشابه العبودية كعاملات منزليّات وعاملات في الدعارة. بدورها تفشل العديد من المنظمات اليسارية في فهم أن مسألة المطالبة بالمزيد من الحقوق للعمّال في زمن الانحدار الطاقوي – بدل العمل المباشر على بناء بدائل لهم – هو كالمطالبة بالحصول على راديو جديد ومكيّف هوائي في سيارة متّجهة إلى الهاوية.

ومثال آخر هو الليبراليين في أوروبا الذين يفشلون في فهم أن النقاش حول الإسلام السياسي ليس قضية تدور حول حق النساء بارتداء حجاب أم لا، بل حول حول الأساس الاجتماعي والثقافي الذي يجب أن يقوم عليه المجتمع. ما تشترك به كلّ هذه المقاربات هي أنها تعالج جانباً واحداً من المشكلة وتفتقر للتفكير المنهجي بالمشكلة ككل. وهذا الخلل هو الأخطر برأينا على حركات التغيير لأنه يؤثّر مباشرة على صلب الثقافة السياسية ويغذّي عدداً من المشاكل الأخرى التي تعطّل بشكل شبه تام حركة التغيير، ومن هذه المشاكل نذكر:

التبسيط والتعميم الأيدولوجي

التبسيط الشديد هو مشكلة حقيقية في الثقافة السياسية الألفية وقد يكون أثراً جانبياً للأيدولوجية اليسارية السابقة التي كانت تعتقد أنها تستطيع أن تجيب على أي شيء بكلمتي "صراع الطبقات". العديد من الناشطين الألفيين يقعون في فخ التعميمات والتبسيط فيما يتعلّق بفهم جذور المعضلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. البعض يعتقد أن المشكلة كلها تتمثّل في النظام السياسي، الحكومة، نخبة شرّيرة خفية أو شركة ما، والبعض يعتقد أنه المال، الدين، أو أي مفهوم تجريدي آخر. البعض يميل إلى تبسيط شديد للحلول، عبر الاعتقاد أن كل شيء سيصبح أفضل حين ينتصر العمّال على الطبقة البرجوازية، أو حين يتم تغيير النظام السياسي، أو حين ننتخب رئيساً جديداً للبلاد.

التبسيط يعني أننا نختار عدسة فكريّة واحدة ونقرّر رؤية كلّ شيء في العالم من خلالها، وهنالك الكثير من العدسات الأيدولوجية المتوافرة في السوق. البعض يضع عدسة "صراع الطبقات" ويحلّل كل شيء من منظور المادية الجدلية، والبعض يضع عدسة "الحكم الفاسد" ويركّز كل تحليلاته على الرئيس أو الحكومة، والبعض يضع عدسة "التغيير الفردي" ويحاول وضع كل المسؤولية على الأفراد لتغيير عاداتهم اليومية ومنظورهم للأمور.

من نافل القول أن التبسيط يقوّض قدرتنا على فهم الواقع كما هو. الأهم، أنه يمنعنا من فهم المعضلات البيئية، الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية، والطاقوية المعقّدة التي تشكّل مجتمعة مصدر أزمتنا الإنسانية المعاصرة.

تجزئة القضايا

التجزئة هي توأم التبسيط والتعميم. ففي ظلّ غياب ثقافة سياسية سليمة ومتناغمة، من الأسهل أن نتلهّى بقضايا مؤقتة وجزئية بدل البقاء على قضيّة أساسيّة واحدة – والتي هي برأينا ضرورة مقاومة وإسقاط المنظومة الرأسمالية الصناعية ككل وبناء بدائل حقيقية تضمن الكرامة والحرية على أرض الواقع في الوقت نفسه.

العديد من النزاعات السياسية في القرن العشرين كانت حول السياسة التقليدية وتمحورت حول أسئلة مركزيّة مثل أي شكل للحكم أو للاقتصاد نريد (قومية، اشتراكية، رأسمالية، ليبرالية، ديمقراطية...)، كيف يمكن تحقيق المساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكيف يمكن ضمان حقوق الإنسان والعدالة...ألخ. على الجهة الأخرى، الصراعات السياسية في زمننا الحالي تميّز بالتشتّت المتصاعد للقضايا – لا يوجد قضايا مركزيّة.

بدل أن تحاول حركات التغيير استعادة المبادرة لخلق قضايا مركزيّة واضحة، ذهبت في الاتجاه المعاكس وهي تختار بشكل متزايد اليوم مجالات ضيقة جداً لقضاياها. الحركات "المتخصّصة" التي ركّزت على فئة اجتماعية واحدة كحركات تحرير السود والحركات النسوية وحركات حقوق المثليين التي انطلقت من الولايات المتحدة كانت مجرّد البداية. اليوم التخصّص وصل إلى ذروة جديدة مع حملات ومنظمات بأكملها قضيتها هي تغيير سطر واحد في قانون وطني، إطلاق سراح سجين سياسي معيّن، أو معارضة مشروع تمدّد عمراني ما.

تركيز العمل على قضيّة واحدة له بالتأكيد جانبه الإيجابي كما سبق وقلنا، لكن العمل على قضية واحدة في ظلّ إهمال السياق الأوسع الذي تجري فيه تطوّراتها، وفي ظلّ الفشل في التحالف والتشابك مع حركة التغيير ككل في وجه خصم مشترك، هو الجزء الذي نعترض عليه.

تركيز الجهود على القضايا المحلّية ليس هو المشكلة إذاً، لأن الصراع الحقيقي هو صراع محلّي – هو حيث نحن متواجدون هنا والآن. المشكلة هي غياب الرؤية الشاملة التي تربط كل هذه الصراعات مع بعضها البعض وتعطيها بعداً استراتيجياً في مواجهتها مع السيستيم.

في ظلّ تجزئة القضايا، لدينا آلاف المنظّمات والأفراد الذي يحاربون أطراف السيستيم من دون أن يكون لديهم القدرة على رؤية أو محاربة السيستيم نفسه. وبسبب تجزئة القضايا، هنالك قلّة نادرة من المنظمات والناشطين الذين يستطيعون رؤية الصورة الكبرى، وكنتيجة يتم تبديد كمّ هائل من الطاقة والموارد كل يوم على ضرب السيستيم في الأماكن التي لا تؤلمه.

تجاهل الحقائق حول الانهيار الذي تعيشه الرأسمالية الصناعية

هذه المسألة لها وجهان: الأوّل هو تجاهل سياق الانحدار الإيكولوجي والكارثة المناخيّة، والثاني مرتبط بالبنية التحتية الطاقويّة للحضارة.

الرأسمالية الصناعية تدخل مرحلة من الانحدار البطيء[43]، وذلك يعود بشكل أساسي إلى أزمة الطاقة ونفاذ الموارد (أو بتعبير أدق: الانهيار الإيكولوجي). الطاقة التي أتاحت وجود حضارتنا الصناعية تتقلّص فيما حضارتنا وشهيّتها على الاستهلاك لا تزال تنمو.

فيما الطاقة تصبح أغلى وأكثر ندرة، حضارتنا تمشي في طريق اللاعودة إلى السقوط وستأخذ معها كل ألعابنا التكنولوجية الحالية. وهنالك المزيد: نحن نستعمل الوقود الكربوني لزرع ونقل الطعام، لبناء المدن، لتأمين الكهرباء للمباني والمنازل والمصانع، لحفظ المعلومات والمال، للتجارة وتبادل السلع، للسفر، لتصنيع المنتجات ونقلها، لتنقية المياه وضخها إلى المنازل والحقول، لتدفئة وتبريد المنازل، لتأمين الكهرباء للمستشفيات، لصناعة وتحريك السيارات والشاحنات والقطارات والطائرات والسفر، لتنظيف المراحيض وصيانة المجارير، ولتجهيز الجيوش والحفاظ على الحكومة وفرض سيطرة الدولة... نحن نستعمل الوقود الأحفوري للقيام بكل شيء. حين تذهب الطاقة، سيذهب معها الاقتصاد والبنية التحتية وكلّ الأمور التي نعتبرها اليوم أمراً مسلّماً به.

حين نخسر هذه الأمور، ومن الواضح الآن أننا بدأنا بخسارتها منذ عدّة سنوات، سيكون المستقبل أقرب لفيلم هوليودي مرعب حيث تكون فيه البشرية عبارة عن جيوب نخبويّة غنيّة تمتلك التكنولوجيا والكهرباء فيما يعيش بقية السكان حياة المزارعين في القرون الوسطى إلى جانب عصابات تعيش على نهب بقايا المدن.

أزمة الطاقة كانت أحد الأسباب الرئيسية للانهيار المالي في العام 2008، وستكون السبب للكثير من الأزمات المقبلة بعد. نحن نشاهد نتائج الانحدار الطاقوي منذ الآن على شكل ارتفاع أسعار الطاقة والغذاء، على شكل كساد اقتصادي وأزمات في مختلف أنحاء العالم، وعلى شكل أزمات سياسية لا حصر لها تحصل لأن الحكومات أصبحت عاجزة عن تأمين المستوى نفسه من الخدمات الاجتماعية والإجماع السياسي في ظلّ الفاتورة الطاقوية والمرتفعة والاقتصاد المتراجع.

للأسف، أو ربّما لحسن الحظ لنا وللأرض، لا يوجد مصادر طاقة بديلة قادرة على مجاراة مصادر الوقود الكربوني كالنفط والغاز والفحم. في أفضل السناريوهات، كل مصادر الطاقة البديلة – ومن ضمنها الطاقة النووية – تستطيع تأمين أقل من 50 % بقليل من استهلاك الطاقة للبشرية[44].

حين تلتقي أزمتا الانحدار الطاقوي والتغيّر المناخي، المسار المرجّح لحضارتنا في المستقبل القريب سيكون عقود من الأزمات السياسية والاقتصادية التي تنتهي كلّ منها بتراجع مالي، تكنولوجي، أو اقتصادي في أنحاء مختلفة من العالم. وهذا سيقود في نهاية المطاف في عمليّة ستستمرّ لعقود وربّما قرون إلى الانهيار الكامل للحضارة الصناعية أو بروز مزيج غريب من الصناعيّة، اقتصادات الخردة، الإقطاع الزراعي، والمجتمعات الصغيرة.

في وجه هذه التطوّرات، أمور مثل النضال لتغيير قانون ما، أو التحمّس بشأن اختراع تكنولوجي جديد، أو وضع إنارة توفير بدل الإنارة العادية، أو المطالبة بالمزيد من الحقوق للعمّال، هي كلّها خارج سياق الأحداث بل حتى سخيفة لأن كلّ البنية الحضارية التي نعرفها اليوم تتبخّر أمام أعيننا.

بدل البدأ بالعمل على بناء بدائل حقيقية على الأرض لمواجهة هذه المعضلة، تجهل معظم حركات الألفية وناشطيها هذه الحقائق والأزمات تماماً ولا تزال عالقة في نفس الصراعات العبثيّة والجزئية التي لن تقدّم أو تؤخّر مصير الرأسمالية الصناعية بشيء. كانت لتكون الأمور مختلفة ربّما لو كان لدينا ثقافة سياسية نقدية قويّة مع مقاربات منهجية واضحة للشأن العام. ربّما لو لم تكن الحركات الناشطة غارقة في النزاعات الجانبيّة، كان يمكن لها أن ترى الصورة الكبرى. وربّما لو لم يكن الناشطين منهمكين إلى هذا الحد بتحديث ستاتوساتهم على الفايسبوك وتويتر، كان يمكن أن يكون لديهم الوقت للإطلاع على أمور مثل الذروة النفطية، الانحدار الطاقوي، التغيّر المناخي والانهيار الإيكولوجي وكانوا أدركوا على الأرجح كم أن خطابهم ونشاطهم بعيد عن الواقع.

الفشل في رؤية الصورة الكبرى حول السقوط الحضاري الجاري على قدم وساق يجعل مجتمعاتنا أكثر هشاشة في وجه الانهيار لأنه يحرمنا من وقت وموارد ثمينة كان يمكن أن نستغلّها في فهم الأزمة وتعزيز مناعتنا المحلّية تجاهها. كلّما تجاهلنا حقائق الانهيار لفترة أطول كلما سيكون وقع الانهيار أسوأ على الجميع. هذا الجهل تجاه حقيقة الأزمة الإنسانية يقود حركات الألفية وناشطيها، كما سبق وقلنا، إلى الالتهاء بالمطالبة بمقاعد أفضل في سيّارة متّجهة إلى الهاوية.

فصل البُعد الاجتماعي عن السياسي عن البيئي عن الروحي

تجزئة القضايا التي تحدّثنا عنها آنفاً تقسّم الصراعات بطريقة تفصل بين الأبعاد الاجتماعية، السياسية، البيئية، والروحية للصراعات وتجعلها نادراً ما تلتقي سوية في حملة أو حركة واحدة. هذه الأبعاد الثلاثة يتم اعتبارها أحياناً متناقضة مع بعضها البعض، حيث أن الحركات البيئية التقليدية تهمل عادة كل القضايا الاجتماعية والسياسية والروحية، فيما الحركات الاجتماعية والسياسية تهمل القضايا البيئية، والحركات الروحية لا تمتلك عادة أبعاد اجتماعية أو بيئية.

في مواجهة سيستيم يرتكز على رؤية شموليّة ومؤسسات تتحكم وتمنهج كافة أوجه الحياة، نحن نستعين بحركات جزئية ورؤى ذات بعد واحد أو من دون رؤية على الإطلاق. في زمن نحتاج فيه لإعادة النظر بأساليب تفكيرنا وعيشنا وفعلنا ووجودنا في العالم، في نحن نحتاج لمقاربة حياتية شاملة وجديدة تستطيع فهم العلاقة والتأثير المتبادل بين الأبعاد الروحية-الثقافية، الاجتماعية-السياسية والبيئية. بين هذه الأبعاد الثلاث، البعد الروحي قد يكون الأكثر جدليّة، وسنعود لمعالجة هذه النقطة في فصل لاحق.

التركيز على التكنولوجيا كحلّ سياسي – اقتصادي

عدم إدراك مسألة الانهيار البطيء للحضارة الصناعية يدفع العديد من الحركات في الوقت الحالي لتبنّي التكنولوجيا كحلّ نهائي لمشاكل البشرية، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

العشق السياسي للتكنولوجيا ينطبق بشكل خاص على حركة مكافحة التغيّر المناخي والحركات البيئية التقليدية التي تعتقد أن وضع إنارة توفير في المنازل قادرة على حلّ المعضلات البنيوية للحضارة الصناعية. هذه المشكلة نراها أيضاً لدى العديد من الحركات الليبرالية والمحافظة على السواء في الغرب والتي تعتقد أن الانترنت – أو أي وسيلة اتصالات أخرى – هو الأداة التي لا تقهر لتنوير و"تحرير" شعوب العالم الثالث.

بعض الحركات التغييرية كزايتجايست ومشروع فينوس تستند في طرحها بالكامل على فكرة أن التكنولوجيا تستطيع جلب الخلاص ووضع نهاية للفقر، الحروب، وحتى الندرة (أما كيف يمكن للتكنولوجيا إنهاء الندرة على كوكب محدود فهذا سؤال لم تجب عليه الحركة). مشروع فينوس على سبيل المثال يعتبر أنه "في ظلّ التطبيق الذكي والإنساني للعلم والتكنولوجيا، سكّان الأرض يستطيعون قيادة ورسم معالم المستقبل سوية فيما يحافظون على البيئة في الوقت نفسه"[45].

هنالك أيضاً العديد من الأمثلة التاريخية التي تعتقد بأن التكنولوجيا يمكن في نهاية المطاف أن تسدّ كل الحاجات البشرية وتلغي الحاجة للعمل وتفتح عصراً ذهبياً للبشرية. هذا هو الموقف الذي يتبناه بعض المفكرين مثل جيريمي ريفكين في كتابه "نهاية العمل"[46]، وحركات تغييرية مثل مشروع فينوس.

المشكلة هي أن هذا الافتراض حول التكنولوجيا هو افتراض عشوائي وغير مرتكز على الواقع؛ تطوّرنا التكنولوجي اليوم يسمح لرجل واحد بزراعة أراضٍ كافية لإطعام ألف شخص، لكن هكذا تطوّر لم يعني – ولا حتى مرة واحدة في التاريخ – أن الناس سترتاح وتتسكّع بهدوء من دون أن تفعل شيئاً فيما الآلات تؤمّن غذاءها. في الواقع، كل تطوّر تكنولوجي أدّى إلى العكس تماماً: كلّما تقدّمنا تكنولوجيا كلما أصبح العمل أكثر تطلباً وقسوة وكلما أصبحت حياتنا الشخصية والجماعية محمومة ومرهقة بالعمل أكثر.

نتائج التكنولوجيا ليست انتقائية، نحن لا نستطيع اختيار الجانب الأفضل منها ورفض الجانب الآخر – بعكس الحكمة الشعبية القائلة أن التكنولوجيا يمكن استعمالها "للخير والشرّ" على السواء. فالتكنولوجيا تأتي في معظم الأحيان في رزمة واحدة: لا نستطيع أن يكون لدينا طاقة نووية من دون أن يكون لدينا قنابل نووية. الأمر بهذه البساطة. سبب عدم قدرة التكنولوجيا على تحريرنا من منظومة السجن التي نعيش فيها هو بسيط جداً: التطوّر التكنولوجي لا يحصل في فراغ، بل هو مرتبط عضوياً بوظائف السيستيم والهدف منه هو خدمة السيستيم. التطوّر التكنولوجي يحصل في ظلّ سيستيم مرتكز على الربح من الأرض والناس والهيمنة على الأرض والناس، وبالتالي التكنولوجيا هي مجرّد أداة أخرى تساهم وتسهّل الربح والهيمنة.

وحتى وإن كانت هنالك تكنولوجيات تستطيع السماح للناس بتأمين احتياجاتهم الأساسية والاستمتاع بالحياة بهدوء من دون عبودية العمل، لن يسمح السيستيم بذلك بل سيحرص على حصول العكس تماماً ليبقى الناس في الصفّ عبر وسائله السياسية، المالية، الثقافية، والقمعيّة إن استوجب الأمر.

لهذا السبب نحن نمتلك اليوم أكثر التكنولوجيات الطبية تطوراً في التاريخ، لكن في الوقت نفسه الصحّة العامة لمعظم السكان هي أسوأ من أيّ وقت مضى. نحن نمتلك أكثر التكنولوجيات الزراعية تطوراً في التاريخ، لكن هنالك مليار شخص حول الكوكب يعاني من السوء التغذية والمجاعة. لدينا أكثر تكنولوجيات المعلومات تطوراً في التاريخ، لكننا نفتقد للحكمة الكافية لحلّ حتى أبسط مشاكلنا العامة. ولدينا أكثر تكنولوجيات الاتصالات والنقل تطوّراً في التاريخ، لكننا نصبح أكثر وحدة وكآبة عاماً بعد عام.

التكنولوجيا بحدّ ذاتها ليس أداة حيادية كما يحلو للمعجبين بالتكنولوجيا أن يقولوا: كل تكنولوجيا تحمل فلسفتها الخاصة التي نشأت منها والتي ستعيد بدورها تشكيل العلاقة مع الأرض، الناس، والبنى الاجتماعية. فلسفة السيارات الخاصة على سبيل المثال هي تمجيد النقل الخاص على حساب النقل العام وعلى حساب المجتمع بشكل عام (السيارات والطرقات المخصصة لها مزّقت المدن والمجتمعات الريفية تمزيقاً شديداً). الانترنت يمكن أن يُعتبر أداة حيادية نسبياً، لكن الكهنة التكنولوجيين الذي يروّجون بأن الانترنت "يجلب الحرية والديمقراطية" لا ينتبهون إلى واقع أنه يمكن أن يُستعمل بنفس الفعاليّة لتحقيق العكس تماماً وهنالك أمثلة كثيرة على ذلك.

التركيز على التكنولوجيا أيضاً يهمل واقع أن معضلاتنا اليوم نادراً ما يكون لها جذور تكنولوجية، وبالتالي ليس لديها حلول تكنولوجية. معضلاتنا لديها جذور جيولوجية (الذروة النفطية)، إيكولوجية (التغيّر المناخي، انهيار الأنظمة الإيكولوجية، وانقراض الفصائل الحيّة)، وسياسيّة اجتماعية (منظومة استعباد هي في الواقع هرم احتيال تقوم فيه أقلّية باستعباد بقيّة الناس وبتحويل كل حجر ونبتة على الكوكب إلى منتجات استهلاكيّة لا قيمة لها). بعض مشاكلنا لديها حتى جذور تكنولوجيّة (كالسيارات الخاصة ما فعلته بالمجتمعات المحلية، الانترنت وما فعله بالتفاعل الإنساني والذكاء العاطفي...ألخ)، لكن الحلول في هذا المجال ليست المزيد من التكنولوجيا بل العكس تماماً – سيّارات أقل مثلاً بدل سيارات متطوّرة أكثر، تفاعلات إنسانية وجهاً لوجه بدل المزيد من الشبكات الاجتماعية الافتراضية...

أهم ما في هذا الموضوع هو أن التركيز على التكنولوجيا يحرمنا من التركيز على المكان الصحيح: الناس. الناس هم مفتاح الحلّ الحقيقي، لا التكنولوجيا. ماذا يمكننا فعله مع آلة تستطيع توفير المياه في مجتمع مقتنع بأن سقي عشب الحديقة في نصف الصحراء وفي منتصف الصيف في لاس فيغاس أو دبي مثلاً هو حقّ أعطاه إياهم الله؟ ما الذي يمكننا فعله بتكنولوجيا حديثة للاتصالات إن كانت الناس تنسى كيف تتواصل مع بعضها البعض من دون آلة؟

الناس هم الحلّ دائماً؛ التركيز على التكنولوجيا هو مجرّد إلهاء عن الأمور المهمّة حقاً في الحياة.

انعدام النظرة النقديّة تجاه الرأسمالية الصناعية والحضارة ككل

النقص الهائل في المقاربات المنهجية لم يؤدّي إلى وجود ثقافة سياسيّة هشّة ومجزّأة فحسب، بل قاد إيضاً إلى انعدام النظرة النقديّة تجاه الجذر الأساسي لأسلوب حياتنا ولمعضلاتنا المعاصرة: الحضارة الرأسمالية الصناعيّة.

هنالك أدبيات كثيرة تنقد الرأسمالية الصناعية وأدبيات أقل تنتقد الحضارة الصناعية ككلّ وتنقد كونها أسلوب الحياة الوحيد المتاح حالياً لنا كجنس بشري، لكن هذه الأدبيات محصورة ببضعة دوائر فكرية محدودة كالأوساط اليسارية القصوى والأوساط اللاسلطوية والإيكولوجية العميقة، وليست منتشرة بكثرة.

سواء كنا نتحدّث عن المعضلات الإيكولوجية، الروحية، الحرّيات، أو العدالة الاجتماعية، من الواضح أن الحضارة الصناعية نفسها هي المشكلة. التقسيم والعنف الطبقيان، السلطوية، الفساد، اللاعدالة، القمع، سلطة الأخ الأكبر، البطريركيّة والعنف ضد النساء والتدمير البيئي هي كلها مكوّنات أساسيّة في الحضارة الصناعية وليست مجرّد تأثيرات جانبية يمكن معالجتها على حدة. أساس الحضارة الصناعية نفسه، وكل مجتمع زراعي-صناعي كبير، هو وجود منظومات مركزيّة تحتكر وتتحكّم بأساسيات العيش كالغذاء، المسكن، والأمن. هذه الطريقة بالتنظيم الاجتماعي تتيح لأولئك الذين في السلطة بأن يتحكموا ويقمعوا السكان من دون أي تحدّ يذكر. وفقاً لهذا المنظور، الوجه الحقيقي للحضارة الصناعية بات مكشوفاً: إنها مجرّد سجن يجب فيه على الناس أن يعملوا لكي يتم تأمين مسكن لهم وطعام.

معظم حركات الألفية والناشطين هم أبعد ما يكون عن هذا المستوى في النقد الوجودي للرأسمالية الصناعية والحضارة. بدل المطالبة بالتحرّر من كلّ السجن، هم مهووسون بالمطالبة بالمزيد من الحقوق للسجناء، كإمضاء ساعات أطول في الباحة تحت الشمس، أو الحصول على تلفزيونات أفضل في الزنزانات، أو – إن كانوا ثوريين، سيطالبون بأنه يجب على السجناء بأن يديروا السجن بأنفسهم لكن معظم حركات وناشطي الألفية لا يشكّكون بالسجن نفسه، وهذا ما يقودهم إلى أن يكونوا عالقين باستمرار في قضايا جانبية لا تمسّ جوهر معضلتنا الإنسانيّة.

التمسّك بأشكال تجريدية ونظريّة من اليوتوبيا المستقبلية

النتيجة الأخرى لغياب المقاربات المنهجية والرؤى الواضحة هي الميل نحو تطوير أشكال تجريدية ونظرية من اليوتوبيا لا يمكن أن ترى النور يوماً.

الإيمان بيوتوبيا مستقبلية خياليّة ليس ظاهرة جديدة؛ الرؤى المثاليّة تظهر عند المنعطفات التاريخية الهامة وخصوصاً حين تكون الحالة الاجتماعية والسياسية سيئة جداً، كما خلال انبثاق الدولة-المدينة في اليونان (الفترة التي شهدت طرح أفلاطون للجمهورية – اليوتوبيا الأولى)، سقوط روما، بداية الثورة الصناعية (التي شهدت بروز اليوتوبيا القومية والاشتراكية – الشيوعية)، وصولاً إلى اليوم حيث نشهد بداية سقوط الرأسمالية الصناعية.

رغم أن الفكر السياسي حول العالم اليوم يتميّز لدرجة كبيرة بغياب الأيدولوجيات المثالية، إلا أنه هنالك العديد من الأفكار حول يوتوبيا مستقبلية متواجدة على خارطة الثقافة السياسيّة الألفيّة. بعضها يوتوبيا ضمنية وغامضة – حتى بالنسبة لأصحابها، وبعضها علنيّة وواضحة، لكنها موجودة ولها تأثير ملموس على الثقافة السياسية.

إحدى اليوتوبيات الضمنيّة مثلا هي اليوتوبيا الليبرالية التي تعتبر أنه يمكننا الوصول إلى مجتمع مثالي لا يوجد فيه تمييز، تفاوت اقتصادي، سلطوية، حروب، فقر، أو أي نوع من أنواع السوء. لكن كما يعلم أي طالب في الأنتروبولجيا البشرية؛ هذه الحالة المثالية لا يمكن تحقيقها في ظلّ الحضارة وخصوصاً بنسختها الرأسمالية الصناعية.

الأشكال الأخرى من اليوتوبيا الصاعدة حالياً ليست بجديدة: يوتوبيا الأصوليات الدينية التي تحلم بدولة واحدة، دين واحد، وحاكم واحد تحت السماء. لكن هنالك أنواع أخرى من اليوتوبيا عادت إلى الحياة أيضاً: اليوتوبيا الماركسية وإلى جانبها اليوتوبيا التكنولوجية التي تطرحها حركات مثل مشروع فينوس.

المشكلة مع أي طرح يوتوبي هي أنه دائماً يرتكز على تجريد فكري لما يجب أن يكون عليه الواقع من دون أي اعتبار للواقع الحقيقي. النتيجة الأكثر سلبية لهذه المشكلة هي أنها تدفعنا لتركيز جهودنا على أفكار تجريدية حول ما يجب أن تكون عليه الأمور في المستقبل بدل استثمار الوقت في دراسة وتجريب الطرق التي يمكن أن تعمل هنا والآن أو التي عملت لآلاف البشر لمئات آلاف السنوات قبل مجيء الحضارة. من الضروري أن يكون لدينا رؤيا لما يجب أن يكون عليه المستقبل، لكن من الأفضل عدم الاعتقاد أنه يمكن بناء مجتمعات من الصفر وفقاً لرؤيا فكرية موجودة مسبقاً، فالمجتمعات كائنات حيّة وديناميّة ومتغيّرة، وأي رؤيا للمستقبل عليها أن تنطلق من واقع أن إيجاد مبادىء إنسانيّة عليا تقوم عليها المجتمعات يعمل أفضل بكثير من محاولة بناء مجتمع وفقاً لصورة في كتاب.

غياب الرؤيا

اجتماع التجزئة مع غياب المقاربات المنهجية ينتج غياباً مثيراً للدهشة لأي نوع من الرؤى السياسية أو الاجتماعية في حركات الألفية. هذه الحركات تمتلك الكثير من البرامج والشعارات والحملات والأهداف، هذا لا شكّ فيه، لكنها لا تمتلك أي رؤيا.

مواجهة السيستيم ككل هو أمر بغاية الصعوبة من دون رؤيا شاملة حول الحياة، البشرية، والكون، لأن السيستيم الذي نواجهه يمتلك رؤيا قوية لدرجة أنها تجعل من الجميع خدّاماً أولياء لها من دون علمهم.

الرؤية المهيمنة للسيستيم تعتبر بأن العالم ينتمي لعدد محدود من الرجال على قمّة الهرم، بأن النساء تنتمي للرجال، وبأن العديد من الرجال ينتمون لرجال آخرين. إنها رؤية استعباد وهيمنة ولا ترى العالم سوى من خلال منظار السيّد والعبد. لكن هذه الرؤيا متنكّرة بكلمات برّاقة مثل "التقدم"، "السعادة"، و"المساواة".

امتلاك رؤيا خاصة بنا يساعدنا على فهم السيستيم الذي نقاومه، وفهم طبيعة العالم البديل الذي نطمح له. الرؤيا هي الشعلة التي تقود الحركة، هي البوصلة التي تساعدنا على رؤية أهدافنا والشمس التي تنير الدرب. هي أيضاً خزّان الطاقة الذي يمكن للمحاربين أن ينهلوا منه للمزيد من الصبر والإلهام. الرؤية هي والدة الاستراتيجيات، التكتيكات، الخطط والبرامج. البرامج من دون رؤى هي كالسيارات من دون وقود: قد تمشي بضعة أمتار بقوّة حماس الناس المؤمنين بها، لكنها تتوقّف قبل بلوغ هدفها فيما يكون كل من شاركوا في دفعها قد أنهكوا في العمليّة.

نظرة سريعة على التاريخ تظهر بأنه وحدها الحركات التي امتلكت رؤى استطاعت وضع بصمتها على العالم.

* * *

إن كنّا نريد تصحيح الخلل في ثقافتنا السياسية، لا بدّ من البدء بمعالجة النقص في المقاربات المنهجية. علينا أن نفهم السيستيم المهيمن على الكوكب بطريقة شاملة؛ أن نفهم رؤيته، أساليبه وعمليّاته. من هنا تبدأ المقاومة الحقيقيّة. **من دون فهم الجذور، لن تنمو جذور للمستقبل الذي نحلم به.**

VIII

أزهار أم بنادق؟
نحو مفهوم أبعد من ثنائيّة العنف واللاعنف

العديد من تيارات اليسار المتطرف علقت في الماضي في فكرة "العنف الثوري" التي غذّت شكل من النضال ارتكز غالباً على العنف العشوائي. مجموعات مثل الجيش الأحمر الياباني، الخلايا الثورية الإيطالية، الكتائب الحمراء الألمانية، الفهود السود الأميركية، أيلول الأسود الفلسطينية، والعديد من المنظمات اليسارية المتطرفة في السبعينيات والثمانينات استخدمت العنف كهدف بذاته. استعمال العنف كان جزء من الأيدولوجية السياسيّة، ولم يكن مجرّد تكتيك.

الفيلسوف الشيوعي كارل ماركس اعتبر أنه "هنالك فقط طريقة واحدة لتقصير عمر وتبسيط وضغط المخاض المميت للمجتمع القديم والولادة الدموية للمجتمع الجديد، طريقة واحدة فقط: الإرهاب الثوري"[47].

الفكرة نفسها كررها معظم القادة الشيوعيون فيما بعد وتبنّتها عشرات المنظمّات الثورية في القرن العشرين. وفي النهاية، أصبحت هذه المنظمّات معزولة، غير فعّالة، وحتى سخيفة ومضرّة بقضيّتها نفسها. العنف حقّق النصر في بعض القضايا في القرن الماضي، لكن معظم النزاعات لم يتم حلّها أبداً عبر العنف. اللجوء إلى العنف كان في الواقع بالنسبة للعديد من الحركات التحرّرية بمثابة المسمار الأوّل في نعشها. اللجوء إلى العنف كان أيضاً السبب وراء فشل بعض الانتفاضات العربيّة في العام 2011 وتحوّلها إلى حروب أهلية مفتوحة.

المثير للسخرية، أن معظم الحركات اليسارية وغير اليسارية الألفية تتعامل اليوم مع موضوع اللاعنف بنفس الطريقة التي تعاملت بها الحركات التي ذكرناها مع موضوع العنف. فهي تضع استراتيجية اللاعنف في مصاف الأيدولوجية والاخلاق بدلاً من أن يكون نقاش على التكتيكات. اللاعنف اليوم هو أحد الكؤوس المقدّسة لحركة التغيير يرفعها كل ناشط أو حركة تريد أن تنال براءة ذمّة سياسية، وغالباً ما يتم خلط استراتيجية اللاعنف non-violent strategy كتكتيك مع اللاعنف كفلسفة pacifism.

استراتيجيّة اللاعنف باختصار

العرّاب الروحي لاستراتيجيّة اللاعنف المعاصرة، جين شارب، ألّف العديد من الكتب القيّمة حول تفوّق تكتيكات اللاعنف على التكتيكات العنفيّة[48]. تركيز شارب في مؤلفاته هو على التعطيل الاستراتيجي للسلطة بشكل يمنعها من ممارسة سلطتها عبرتكتيكات لاعنفيّة كالاحتلال، الاضرابات، التظاهرات، مقاومة الضرائب، والاعتصامات. لكن الفكرة بأكملها تفترض ضمنياً أن هذه التكتيكات ستكون قادرة حتماً على تعبئة وتحريك عدد كبير من الناس، والعدد في الاستراتيجية اللاعنفية هو عنصر حاسم في النجاح أو الفشل (ولو قال مؤيّدوا اللاعنف الاستراتيجي عكس ذلك). الافتراض الضمني الثاني لاستراتيجيّة اللاعنف هو أنها تفترض أن السلطات والناس ستستجيب في نهاية المطاف للانتفاضة الشعبية بطريقة محدّدة: إن استجابت السلطات بعنف، يفترض مؤيدو استراتيجية اللاعنف أن المزيد من الناس سوف ينضمّون إلى الاحتجاج، وإن استجابت السلطات بإيجابية من دون عنف، المزيد من الناس سوف ينضمّون أيضاً إلى حركة الاحتجاج. في الحالتان، تفترض استراتيجية اللاعنف أن:

1) السلطات ستستجيب في نهاية المطاف لمطالب الشعب بطريقة أو بأخرى.

2) الناس ستتعاطف وتتضامن مع حركة الاحتجاج في وجه السلطة

3) الجماهير المنظّمة سوف تربح قضيتها بأقل خسائر ممكنة مقارنة مع نزاع عنفي.

أحد أبرز القادة اليساريين في حركة احتلوا وول ستريت، كريس هدجز، يعبّر عن هذه المقاربة بالقول:

"هذا صراع لربح عقول وقلوب أكبر عدد ممكن من الناس العادية ومن الناس داخل مؤسسات السلطة – ومنها أفراد الشرطة – التي لديها ضمير. هذه ليست حرب. الحركات اللاعنفية ترحّب على مستوى ما بالضراوة الأمنية. المحاولات المستمرة من قبل الدولة لسحق المحتجين السلميين الذي يطالبون بالعدالة البسيطة تنزع الشرعيّة عن النخبة الحاكمة. وهي تشجّع كمّ هائل من الناس على الاستجابة. هذا التكتيك يجلب بعض من هم داخل مؤسسات السلطة إلى جانبنا ويخلق انقسامات داخلية ستؤدّي إلى شلل في شبكة السلطة.

مارتن لوثر كينغ (قائد حركة الحقوق المدنية في الستينيات في الولايات المتحدة) استمرّ بالدعوة لمسيرات في منطقة برمينغهام لأنه كان يعلم أن مسؤول الأمن العام هناك كان بلطجياً يمكن أن يقمع التحرك بضراوة"[49].

ثغرات استراتيجيّة اللاعنف

هذه المقاربة الاستراتيجية تبدو منطقيّة للوهلة الأولى لكن فيها نقاط خلل كبيرة. هي أولاً تفشل في الأخذ بعين الاعتبار أن أكثر قضايانا أهميّة اليوم تفشل في تعبئة وتحريك عدد كبير من الناس (وخصوصاً في قضايا مصيريّة مثل التغيّر المناخي والانهيار الإيكولوجي). مقاربة اللاعنف تمتلك أيضاً افتراضات غير واقعيّة عن كيفيّة تطوّر النزاعات السياسية حين تقوم الدولة بمواجهة حركة الاحتجاج دموياً. فردّة الفعل الأولى للناس قد تكون الانفضاض عن حركة الاحتجاج وشجبها حتى، بدل التضامن معها ومواجهة السلطة. من ناحية أخرى، قد تستطيع حركة شعبيّة منظّمة جيداً ومنضبطة أن تستوعب القمع العنيف من السلطات وإكمال استراتيجيتها اللاعنفية لفترة محدّدة. لكن قدرة أي حركة احتجاج شعبي على استيعاب القمع هي محدودة، وخصوصاً إن كان القمع عنيف جداً أو استمرّ لفترة طويلة من الزمن. الدكتاتور الليبي معمّر القذافي قصف التظاهرات السلميّة بالطائرات الحربيّة، واستعمل المدفعيّة لاستهداف التجمعات المدنيّة الشعبية. كيف يمكن لأي حركة في العالم أن تحافظ على استراتيجية لاعنفيّة في ظلّ ظروف كهذه؟

الانتفاضة المصرية الأولى عام 2011 تحمّلت القمع لـ 18 يوماً قبل أن تبدأ الأمور بالانحدار تدريجياً نحو المواجهات العنيفة مع النظام وأعوانه في ظلّ موت مئات الناس واعتقال الآلاف. النظام اختار أن يتنحّى بعد 18 يوم من الاحتجاج فقط، لكن لو استمرّ القمع وإطلاق النار على التظاهرات والاعتقالات والتعذيب لكانت النتيجة مختلفة.

كل شعب، مهما كان ميالاً نحو السلام، لا يستطيع تحمّل الموت إلى ما لانهاية قبل التفكير بحمل السلاح والانتقام لأفراد العائلة والأصدقاء الذين سقطوا. معظم النزاعات العنفيّة المعاصرة نشأت في الواقع بعد الفشل الذريع لسنوات للاستراتيجيات اللاعنفية في تحقيق تغيير يذكر. ديفيد غرايبر يشير إلى أن

"العديد من الشبّان والشابات الذي شكّلوا البلاك بلوك في سياتل (عام 1999) كانوا في الواقع نشطاء بيئيين منخرطين لسنوات في اعتصامات وتعطيل سلمي للدفاع عن الغابات على مبادىء غاندية – لكنهم اكتشفوا أنه في الولايات المتحدة يمكن للمحتجّين أن يُقمعوا، يُعذّبوا، أو حتى يُقتلوا، من دون اعتراض جدّي في الاعلام المحلّي. لذلك لجأوا إلى تكتيكات أخرى"[50].

بدل أن يكون اللاعنف أداة استراتيجية تُستعمل بذكاء من قبل حركات الألفية، تحوّل اللاعنف إلى عقيدة تساهم في نزع مخالب حركات التغيير وتحويلها إلى نمور من ورق لا حول لها ولا قوّة.

الانقسام العنفي – اللاعنفي وأثره على حركة التغيير

نتيجة أخرى لأدلجة اللاعنف هي خلق شرخ في قلب حركة التغيير بين الحركات السلميّة والحركات الأكثر راديكاليّة. حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي كانت تحوي العديد من القوى التي كان منها اللاعنفي المطلق (مثل الحركة التي قادها مارتن لوثر كينغ)، والحركة التي تتراوح بين العنف واللاعنف (مثل حركة مالكوم أكس)، إلى الحركات المسلّحة كالفهود السود. لكن هذه الحركات لم تخض الحروب ضد بعضها البعض رغم اختلافاتها المريرة. وفي نهاية المطاف، هذا المزيج تحديداً الذي جمع حركات لاعنفية مع حركات عنفيّة هو ما حقّق نجاح حركة الحقوق المدنية للسود في الولايات المتحدة. لو لم تستجب السلطات الأميركية لمطالب مارتن لوثر كينغ بالمساواة القانونية التامة بين البيض والسود، كانت الحركات الأكثر راديكاليّة وعنفاً مستعدّة لأخذ الصراع إلى المستوى التالي، وهذا الاحتمال لم يكن وارداً لحكومة كان تخوض حرب خاسرة في فييتنام.

بالمقارنة مع ذلك، معظم حركات الألفية تخوض طوعاً اليوم حروباً داخلية فيما بينها وتتطوّع لشجب، لوم ومحاربة التيارات الأكثر راديكالية التي تنتهج تكتيكات غير سلميّة لتحقيق الأهداف نفسها. نحن نرى ذلك معظم الوقت غرباً وشرقاً في الطريقة التي تتعامل بها الحركات التقليدية مع المنظمات الثورية، الأنركية، تكتيكات البلاك بلوك، والمنظمات البيئية المتطرفة. كريس هيدجز، الذي سبق وذكرناه، يصف محتجّي البلاك بلوك مثلاً بأنهم "السرطان في حركة احتلوا وول ستريت"[51]، فاتحاً الباب أمام الدولة، بكلمات الكاتب الأنركي غرايبر، لعزل وقمع عنصر أساسي في حركة الاحتجاج. شجب التيارات الراديكالية هو خدمة هائلة للسلطات لأنه، وكما تقول إحدى المجموعات الراديكالية، "إدانة الآخرين ليس لديه من نتيجة سوى تزويد السلطات بما يكفي لنزع الشرعية عن الحركة، لتفتيتها وتدميرها ككل"[52].

المهاتما غاندي نفسه، العرّاب الروحي لحركة اللاعنف المعاصرة، لم يشجب يوماً العناصر العنيفة في الصراع الهندي من أجل الاستقلال في حينه. كما لاحظ غرايبر:

"غاندي كان جزء من حركة واسعة مناهضة للاستعمار تضمّنت عناصر كانت تستخدم الأسلحة النارية، وعناصر كانت في الواقع منخرطة بحملات إرهابية (ضد البريطانيين). غاندي وضع إطار استراتيجيّته الخاصة القائلة بالمقاومة المدنية الشعبية اللاعنفية كردّ على النقاش (في صفوف الحركة المناهضة للاستعمار) الذي اندلع بعدما قام قومي هندي بدخول مكتب مسؤول بريطاني وإطلاق خمس طلقات عليه في وجهه وقتله على الفور. غاندي كان واضحاً وقتها أنه رغم معارضه للقتل تحت أي ظروف كانت، هو يرفض أيضاً شجب القاتل"[53].

موضة شجب المكوّنات الراديكالية في حركة التغيير تحرم صراعاتنا بالفعل من مكوّن فعّال وحيوي وضروري وتتيح للدولة أن تعزل التيارات الراديكالية عن المجتمع الأوسع وأن تقمعها وتدمّرها واحدة بعد الأخرى فيما الحركات التقليدية توفّر الغطاء والتشجيع. هذا ما حصل مثلاً خلال الحراك السياسي الذي سبق الثورات التونسية والمصرية والسورية حيث تفرّجت المعارضة الإصلاحية بصمت على قيام السلطات بقمع العناصر الراديكالية المطالبة بتغيير النظام. وهذا ما حصل أيضاً في الولايات المتحدة عام 2005 حيث شنّت الأجهزة الأميركية حملة اعتقالات واسعة على خلايا حركة تحرير الأرض فيما عُرف باسم عملية "باك فاير" ووجّهت ضربة للحركة البيئية الراديكالية لم تتعافى الأخيرة منها حتى الآن.

حين قُمعت التحركات الشبابية في تونس ومصر وسوريا بين عامي 2001 و2011، كانت المعارضة الإصلاحية تشجب التحركات الشبابية وتعتبرها جزء من مخططات خارجية خبيثة بدل أن تشجب النظام وتشير إلى الظروف السياسية والاقتصادية المتدهورة التي أدّت لنشوء هكذا ردّات فعل. وحين قُمعت حركة جبهة تحرير الأرض عام 2005 في الولايات المتحدة، كانت الحركات البيئية التقليدية تشجب وتستنكر أعمال الجبهة بدل أن تشير إلى التردّي الإيكولوجي واستمرار عمليّة قتل الكوكب الذي يؤدي إلى نشوء الحركات البيئية الراديكالية في الأساس.

نحو رؤيا أبعد من ثنائية العنف واللاعنف

إن أرادت حركات الألفية أن تنجح في مساعيها، عليها بالتأكيد التوقف عن أدلجة مسألة العنف واللاعنف والتوقف عن معالجة هذه الأمور كمفاهيم تجريدية والبدء بدلاً عن ذلك بتقييمها بواقعيّة كاستراتيجيات عمل. الاستراتيجيات العنفيّة واللاعنفية على السواء نجحتا نجاحاً باهراً في العديد من الأماكن، وفشلتا فشلاً ذريعاً في أماكن أخرى. نتيجة أي استراتيجية بينهما ترتبط بالظروف على الأرض: لذلك علينا أن نقيّم الظروف ونختار التكتيكات المناسبة بحسب المكان والزمان.

هذا ما فعله بنجاح باهر مثلاً جيش التحرير الوطني في المكسيك الزاباتيستا. النشاط الواسع النطاق الأوّل لحركة الزاباتيستا كانت السيطرة على عدّة مدن وقرى في منطقة تشياباس بـ 3000 جندي مسلّح. شنّ الجيش المكسيكي حملة عسكرية مضادة ونجح بعد معارك ضارية في استعادة المدن والقرى مجبراً الثوار على الانسحاب إلى الجبال. بعد الهزيمة، أعادت الحركة تقييم استراتيجيتها واختارت أن تبقى بعيدة عن تكتيك حرب العصابات التقليدية وأن تتبع استراتيجية لاعنفيّة طويلة الأمد. أحد قادة الحركة، ماركوس، يشرح:

"نحن لا نريد أن نفرض حلولنا بالقوّة، بل نريد أن نخلق مساحة ديمقراطية. نحن لا نرى أن الصراع المسلّحة بالمعنى الكلاسيكي لحرب العصابات على أنه الأسلوب الوحيد والحقيقة المطلقة التي يجب تنظيم كل شيء حولها. في الحرب، المسألة الحاسم ليست المواجهة العسكرية بل ما هو على المحكّ في السياسة خلال المواجهة. نحن لم نذهب إلى الحرب لكي نقتل أو لنُقتل. نحن ذهبنا إلى الحرب لكي يسمعوا صوتنا"[54].

عند التفكير بالاختيار بين الاستراتيجيات العنفية وتلك اللاعنفية، هنالك الكثير من العوامل التي يجب أخذها بعين الاعتبار، منها:

- قدرة الحركة أو القضية على تعبئة وتحريك عدد كبير من الناس
- المكاسب السياسية، الاقتصادية، والحياتية التي هي على المحكّ بالنسبة لطرفي النزاع (لأنها تعني كم سيتمسّك كل طرف بموقفه السياسي وما إذا كان مستعداً لاستخدام العنف للدفاع عن امتيازاته أم لا)
- طبيعة السلطة والطبقة السياسية الحاكمة وكيفية تعاملها مع المطالب الشعبية السابقة
- وضع الإعلام ومجال حريته واستقلاليته عن الطبقة الحاكمة
- توازن القوى بين الطرفين (الشعبي، السياسي، الاقتصادي، والعسكري...ألخ)
- النتائج المحتملة لكلّ من الاستراتيجيّتين

على سبيل المثال، حين نزل ملايين التونسيين إلى الشوارع في العام 2011، اختار الديكتاتور بن علي ونظامه الرحيل بدل إراقة المزيد من دماء الناس (رغم ذلك، لقي 400 تونسي حتفهم خلال الانتفاضة). هذا ما أتاح للانتفاضة التونسية أن تنجح بأدنى حدّ ممكن من العنف. في العام نفسه، استخدم الدكتاتور المصري حسني مبارك تكتيكات أكثر عنفاً في مواجهة المتظاهرين لكي يجبرهم على الاستسلام. قُتل نحو 1000 شخص فيما تم جرح واعتقال وتعذيب عشرات الآلاف. ورغم ذلك، اختار مبارك ونظامه التنحّي حين واجهت مصر احتمال الدخول إلى خراب حقيقي، وهذا ما اتاح للثورة المصرية الأولى أيضاً النجاح عبر استخدام تكتيكات لاعنفيّة بشكل أساسي.

أما الدكتاتور الليبي معمّر القذافي، فقد اختار تحت الظروف نفسها أن يبدأ بقصف تظاهرات المعارضة بالطائرة الحربية، وقتل 10 آلاف شخص من مواطنيه بأقل من أسبوعين وكان جيشه يتقدّم باتجاه الحصن الأخير للمعارضة من دون أي اعتبار للكلفة البشرية. حين تخلّت بعض الوحدات العسكرية عن مواقعها تاركة وراءها أسلحتها وذخيرتها، كانت فصائل المعارضة والناس بشكل عام أكثر من مستعدّة لحمل السلاح وقتال النظام.

السيناريو نفسه تقريباً تكرّر في سوريا لكن بشكل أكثر دراماتيكية. الانتفاضة بدأت بشكل سلمي والناس اختارت في البدء أن تكون التكتيكات اللاعنفية هي التكتيكات الرئيسية لانتفاضتها. أحد أكثر الشعارات شهرة خلال الأشهر الأولى في التظاهرات المناوئة للنظام كانت "سلميّة سلميّة". لكن نظام بشّار الأسد واجه التظاهرات بالرصاص منذ اليوم الأوّل. النظام قتل نحو 15 ألف شخص خلال الأشهر الستة الأولى، أخفى واعتقل وعذّب نحو 200 ألف شخص آخرين، وجرح وهجّر الملايين غيرهم. رغم ذلك، نجحت الثورة السورية بالحفاظ على سلميّتها لثمانية أشهر في وجه القمع، قبل أن تتعسكر ببطء تحت ثقل القمع الوحشي من النظام. في الفترة التي كُتب فيها هذا النص، كان هنالك أكثر من 100 ألف شخص قد لقوا حتفهم، نصف مليون معتقل ومخفي، وملايين تم تهجيرهم من قراهم بسبب القصف والقمع، فيما الاقتصاد السوري يتهاوى إلى الحضيض. رغم أن الانتفاضة الشعبية بدأت سلميّة، النظام في دمشق لم يكن لديه أدنى مشكلة بقتل واعتقال مئات آلاف الناس وتدمير البلد وتحويل النزاع السياسي إلى حرب أهلية مفتوحة، بدل أن يوافق على التنحّي.

في الحالتان السورية والليبية، لم يكن هنالك من مجال للتكتيكات اللاعنفيّة، مهما كانت متقنة وجماهيريّة واستراتيجيّة، لتحقيق أهداف الثورة، تغيير مسار النزاع، أو – وهذا الأهم – الحفاظ على سلامة الناس في مواجهة الطغاة. في النزاعين السوري والليبي، المقاتلون في الخنادق هم أكثر أماناً بكثير من المحتجّين السلميين في الشوارع.

من المهم أيضاً أن نشير إلى أنه في العديد من الحالات، لا يوجد خطوط فاصلة واضحة بين تكتيكات العنف واللاعنف. تعريف العنف هو تعريف مطّاط، وعادة ما تفرضه السلطات الحاكمة وفقاً لمقياسها لوصف أي نشاط اعتراضي يمكن أن يغيّر الأمر الواقع. بكلمات المجموعة الأنركية الأميركية CrimeThinc:

"العنف هو الكلمة-الرمز للاستعمال غير الشرعي للقوّة: أي شيء يمكن أن يعرقل أو يهرب من تحكّم السلطات يُعتبر عنفاً. هذا يفسّر لنا لماذا لا يُعتبر عنفاً قيام مالكي الأبنية في الضواحي برفع الإيجارات، لكن الدفاع عن نفسك حين تأتي الشرطة لطردك من منزلك هو عنف. رمي المواد السرطانية في النهر لا يُعتبر عنفاً، لكن تعطيل المصنع الذي ينتج هذه المواد هو عنف. سجن الناس لا يُعتبر عنفاً، لكن إنقاذ الناس من أيادي الشرطة التي تحاول اعتقالهم هو عنف"[55].

في العديد من الحالات، المنظّمات الراديكالية التي تتحدّث عن التكتيكات العنفيّة تقصد عادة أعمال التخريب التي تستهدف الممتلكات وتهدف لتعطيل سير السيستيم المهيمن، لا الأعمال التي تستهدف الأفراد بشكل مباشر. وهنالك اليوم نقاش في الأوساط الراديكالية ما إذا كان ذلك يمكن تسميته بتكتيكات عنفيّة لأنه لا يهدف أو يتضمّن أذية أي مخلوق حيّ. المدوّن الناشط برندان كيلي يكتب:

"هنالك فرق أخلاقي كبير بين تحطيم زجاج بنك وبين تحطيم شخص. وضع الاثنين تحت مصطلح واحد هو "العنف" هو أمر يدلّ على كسل فكري وقلّة مسؤولية سياسيّة. تحطيم نافذة ليس عنفاً، إنه تخريب. وهنالك فرق – إلا إن كنت تعتبر أن الناس والممتلكات المادية هما الأمر نفسه أخلاقياً"[56].

جبهة تحرير الأرض ELF مثلاً، التي تصنّفها الحكومة الأميركية على أنها التهديد المحلّي الإرهابي الأوّل، لم تؤدي عملياتها إلى قتل أو إيذاء أي إنسان أو حيوان رغم تنفيذها لآلاف عمليّات التخريب.

خلال الثورتان التونسية والمصرية في العام 2011، التي صنّفها البعض على أنها أنجح الثورات اللاعنفية في التاريخ الحديث، استعملت تكتيكات راديكاليّة تلامس العنف في الكثير من الأحيان. حرق مباني الأمن وسيّارات الشرطة، رمي الحجارة والمولوتوف على قوّات الأمن، تحصين وإغلاق الطرقات العامة، اقتحام مؤسسات الحزب الحاكم وإحراقها، وقتال الشوارع مع مؤيّدي النظام، هي كلها تكتيكات تم استعمالها بل تم اعتبارها في معظم الأحيان تكتيكات لاعنفيّة. تخلّلت الثورتان أيضاً العديد من الهجمات المسلّحة على نقاط الجيش والشرطة في الأطراف الريفيّة.

في الخلاصة، نجاح الاستراتيجيات العنفيّة واللاعنفية يرتبط بالظروف التي تجري فيها كلّ منهما؛ اللاعنف ينجح غالباً مع قضايا قادرة على تعبئة عدد كبير من الناس ومع سلطات تفضّل التنحّي أو قبول المطالب على ذبح شعب بأكمله في الشوارع، ومع سلطات تخشى تحوّل الاحتجاجات السلميّة إلى حرب أهليّة – لا سلطات تتوسّل تحوّل الانتفاضات السلمية إلى ثورات مسلّحة. النقطة المثيرة للانتباه هنا هي أن استراتيجية اللاعنف تعمل بفعاليّة أكبر حين تكون حركة الاحتجاج قابلة على التحوّل إلى حركة مسلّحة أو عنيفة – ما يستدعي من السلطات الاستجابة لمطالب الحركة اللاعنفيّة لتجنّب الاحتمال الأسوأ.

التعامل مع موضوع العنف واللاعنف يجب سحبه من هيمنة الافتراضات الأخلاقية والأيدولوجية ووضعه تحت مجهر التقييم الاستراتيجي الواقعي. وبهذه الطريقة ستكون كل منظّمة أو حركة أوسع قادرة على اختيار الاستراتيجية التي تناسب مكانها وزمانها وسلطتها الحاكمة. وسواء اختارت أن تكون لاعنفيّة بالكامل، أو اختارت أن تكون شبكة سرّية من المقاتلين، التاريخ سيحكم حول جميع هذه الخيارات في نهاية المطاف.

IX

العالم لم يُصنع لنا
لماذا البعد الروحي أساسي للتغيير الشامل

الطريقة التي نفهم من خلالها العالم ونفترض دوراً محدداً لنا فيه هي موضوع روحي بطبيعته. سواء كنا نؤمن أن العالم موجود من أجل الإنسان وأن هدف الإنسان (أو الرجل تحديداً) هو إخضاعه لإرادته، أو كنا نعتقد أن الإنسان هو مجرّد حلقة واحدة من سلسلة الوجود العظمى، فهذه افتراضات ورؤى روحيّة – بمعنى أنها افتراضات تتجاوز المكان والزمان وتتحدّث عن دور الإنسانية بتعابير تجريديّة فكريّة. الروحانيّة بحدّ ذاتها هي قيمة بشرية متأصلة؛ فنحن كبشر متميّزون بقدرتنا على إدراك الأمور الميتافيزيقية (التي تتجاوز الفيزياء والمادة) على المستويين الداخلي (الذات والعلاقة معها) والخارجي (الزمان والمكان، المفاهيم التجريدية، العلاقات مع الآخرين...ألخ). هذا الوعي الذاتي والقدرة على تأمل الذات والكون هو ما يجعلنا بشراً. نحن بشر لأنه لدينا

القدرة على إدراك ذواتنا والآخرين والعالم والتواصل مع كل هؤلاء بطريقة تتجاوز الرابط العضوي المادّي المباشر.

على مستوى أكبر، هذه القدرة الإدراكية تعطينا مفاهيم، رؤى، نظرات معيّنة للعالم، قيم، واتجاه. هي تعطينا فهم محدّد للواقع، وبالتالي فهم لكيف يجب علينا أن نحيا، ولدورنا في الحياة، كأفراد وجماعات.

لذلك، الروحانية هي بجوهرها ميزة حميمة جداً لإنسانيّتنا، وهي تؤثّر بشكل كبير ومباشر على كيفية استعمالنا لطاقتنا الفرديّة والجماعيّة. فإن كنّا نؤمن أننا أعلى طبقة من المخلوقات على الأرض وأن الكوكب هو ملكنا الخاص لنخضعه، سوف نوجّه طاقتنا تجاه إخضاعه مع جميع مخلوقاته وتحويل آخر شجرة وحجرة على الكوكب إلى سلع بلاستيكية لبيعها في الأسواق (وهذا ما يحدث الآن). وإن كنّا نؤمن أننا رفاق كل المخلوقات غير البشرية وجزء أساسي معها في النسيج العظيم للحياة، سوف نوجّه طاقتنا لتعلّم العيش بتناغم مع الأرض ومخلوقاتها. إن كنّا نؤمن أننا شعب مختار من إله في السماء، أو أن البشر هم طبقات هرمية مصنّفة فوق بعضها بعضاً وفقاً للعرق، الدين، الجنس، أو الجنسيّة، سيكون من الطبيعي والمقبول بالنسبة لنا أن تكون مجتمعاتنا مبنيّة على أساس التمييز، العبودية، والقمع الدائم لمجموعات كبيرة من الناس.

واقع الوجود وأجوبتنا الخاصة على مكاننا في العالم تحدّد نظرتنا للوجود، ما يحدّد بدوره إطار قراراتنا وأفعالنا في العالم، ما يحدّد بدوره الواقع الذي سيؤثّر بدوره على نظرتنا للوجود. هذه هي الجدليّة الحقيقيّة.

نظرتنا للعالم تحدّد لدرجة كبيرة كيف نتصرّف فيه، والعكس صحيح (حقيقة العالم تؤثّر أيضاً على تشكيل نظرتنا إليه). ولهذا السبب، الروحانيّة مهمّة جداً. بكلمات المفكّر دانييل كوين:

"لا يوجد مشكلة جوهرية في البشر. إن كان لديهم قصّة لتنفيذها تضعهم بتوافق مع العالم، سيعيشون بتوافق مع العالم. وإن اعطيوا قصّة لتنفيذها تضعهم بتعارض مع العالم، كما تفعل قصّتكم (قصّة الحضارة)، سيعيشون بتعارض مع العالم. إن كان لديهم قصّة لتنفيذها يكونون فيها أسياد العالم، سيتصرّفون على أنهم أسياد العالم. وإن كان العالم في هذه القصّة هو خصم يجب إخضاعه، سوف يخضعونه كما يخضعون الخصم، وفي يوم من الأيام، سيكون خصمهم جريحاً ينزف حتى الموت تحت أرجلهم، كما هو العالم الآن"[57].

أهم المشاريع البشرية في التاريخ، بدءاً من بناء المعبد الأول في غوبكلي تيبي فيما كانت البشرية لا تزال مجتمعات صيد وقطاف، كانت تحرّكها رؤيا محدّدة، نظرة للعالم، هدف أسمى؛ أو بعبارة أخرى: جذور روحيّة.

هذا التأثير العظيم الذي يمتلكه البعد الروحي في القلب البشري قد تم استغلاله تاريخياً من قبل الكثير من السلطويين والمؤسسات المدمّرة، وتم استخدامه لإحداث رعب وظلم لا يمكن تصوّره خلال الألفيتين الأخيرتين بشكل خاص. هذا الاستغلال قاد في الكثير من الأحيان لرفض معاصر مطلق للروحانيّة ككل، وخاصة بعدما أصبحت الروحانيّة والدين مرادفان لنوع واحد من الدين السلطوي والقمعي – الدين التوحيدي في أوروبا والمتوسّط.

هذا السياق التاريخي شهد ولادة التيارات المناهضة للدين كالتيارات الشيوعية والإلحادية والعلمانية واللاسلطوية، وهذا السياق التاريخي هو الذي دعا هذه الحركات لرفض كل ما هو مرتبط بالروحانية بشكل شبه قاطع. المشكلة هي أننا نعيش اليوم في سياق تاريخي مختلف نسبياً لكن العديد من حركات الألفية ورثت العداء الشديد تجاه الروحانيّة من التيارات السابقة من دون إعادة النظر فيه وفقاً للظروف الحالية.

صعود التطرّف والعنف الديني هو من دون شكّ عنصر يضخّ الحياة للفلسفات الرافضة للروحانية، لكن المشكلة أن النقد اليساري والإلحادي الجديد للروحانيّة والدين يتم في سياق شمولي مطلق يحاول أن يفرض نفس القراءة والتأويل والمعنى على كل الروحانيات بأشكالها المختلفة، في جميع الأماكن، في جميع الأزمنة، وبغضّ النظر عن أي سياق خاص بكلّ منها. لذلك علينا أن نتذكّر أن النقد اليساري والعلماني تجاه الدين نشأ في سياق تاريخي محدّد جداً: رعب الحروب الدينية والقمع الديني في أوروبا والشرق الأوسط من القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر. وهذا النقد ينطبق أيضاً على سياق محدّد جداً: الأديان السلطوية، التوحيدية والإقصائيّة التي تقوم على سلطات مركزية، هرميّة، تقتصر على الرجال، – سواء كانت هذه السلطة مؤسسة معصومة أو كتاب منزل.

الرفض اليساري المطلق للروحانية الذي ورثته حركات الألفية لدرجة كبيرة يحرم حركات التغيير السياسي والاجتماعي من بعد فريد وقويّ، وربما الأداة الأقوى التي يمكن أن تكون بمتناولها.

تجاهل البعد الروحي يعني تركه كأداة يستعملها ويستغلّها خصومنا في السلطة في حربهم ضدّنا. الآثار المرعبة للدين في العديد من أنحاء العالم اليوم وفي التاريخ هي بحدّ ذاتها أكبر دليل على القوّة العظيمة التي تمتلكها الروحانيّة في التأثير على الناس وعلى الأمر الواقع. الروحانيّة كانت وستكون دائماً إحدى أخطر العناصر المحرّكة للشعوب والأفراد في كلّ الأماكن وكلّ الأزمان. الحركات الأكثر نجاحاً في التاريخ كانت الحركات التي كان لديها جذور روحانيّة سلّحت أفرادها برؤى متكاملة حول الحياة وحول دور الإنسانية أو دور مجموعة محدّدة فيها في العالم والتاريخ. هذه حالة العديد من التيارات المناهضة للعبودية في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر والستينات، وما عرف بلاهوت التحرير في أميركا الجنوبية في السبعينات، وفي حركات مقاومة لا تحصى من كافة أنحاء العالم.

مشكلة أخرى هي أن المنظومة المهيمنة على الكوكب – الرأسمالية الصناعية، لديها رؤيا روحية متجذّرة في عقول الجميع من دون أن يدروا. هي رؤية ضمنيّة جداً تقوم على فلسفة العبد-السيّد وتفترض أن الأرض، كل مخلوقاتها، وكل البشر الذين ينتمون لطبقة أدنى (كالنساء، الملونون، العمّال، الفقراء، الأجانب، المختلفون دينياً...ألخ) ينتمون لطبقة محددة من الرجال. هذه النظرة تضع الرجل-السيّد في مركز الكون وفوق جميع المخلوقات الأخرى (من ضمنهم الرجال والنساء الأقل ثروة وسلطة)، وتعطي هذه الطبقة من الرجال-الأسياد

حق إخضاع وتدجين العالم وتفتيته وبيعه وصناعته على صورتهم كسجن كبير. إن لم تكن هذه الرؤيا المهيمنة هي رؤية دينية-روحيّة، فما الذي هو كذلك؟

بالإضافة إلى كلّ ذلك، الأديان الهرمية الإقصائيّة كانت ولا تزال أداة فعّالة جداً في يد الطبقات الحاكمة لإخضاع وإلغاء البدائل التي تظهر هنا وهناك من وقت لآخر. ترك هذه الأداة القوية في يد خصومنا من دون أن نقدّم بدائل روحية للناس، فيما نقوم نحن في الوقت نفسه بإغلاق أعيننا والإدعاء بأنها غير موجودة وأنها مجرّد أفكار سخيفة لا يعتدّ بها، يعني أننا نخسر نصف المعركة على الأقل، كل معركة.

التغيير الذي نحتاجه في واقع الإنسانيّة اليوم هو تغيير هائل وشامل وجذري وغير مسبوق في تاريخ جنسنا. نحن نحتاج لطرق جديدة في التفكير، الفعل، والوجود في هذا العالم. صراعنا اليوم ليس حول تغيير أسماء الرؤساء في الحكم أو إقرار قوانين في البرلمانات أو اختراع ألعاب تكنولوجيّة جديدة توفّر القليل من الطاقة. نحن نحتاج لتغييرات منهجيّة كبرى في كامل هندسة حياتنا ولا يمكن تحقيق هكذا تغيير من دون نظرات شاملة للحياة والكون والإنسان تجيب على الأسئلة الكبرى حول دورنا في شجرة الوجود العظمى.

الروحانيّة هي صفة فطريّة في الإنسان، وإن كان هنالك من قوّة عظيمة تستطيع فتح أبواب واقع جديد مختلف، فهذه هي.

X

نحو ثقافة سياسيّة جديدة للقرن الحادي والعشرين

مشكلتنا بسيطة: الأمر الواقع تغيّر كثيراً خلال العقود الماضية فيما بقيت ثقافتنا السياسية على حالها. الثقافة السائدة حالياً وخصوصاً في وجهها السياسي، هي ثقافة عفا عليها الزمن وغير قادرة على التعامل مع عالم اليوم.

الثقافة السياسية لا تنشأ من فراغ: الواقع المادّي يزوّدنا بثقافة، بفهم محدّد لكيفيّة عمل الأمور في الحياة ككل، بنظرة محدّدة إلى العالم تتيح لنا فهمه والعيش فيه بأكبر قدر ممكن من الأمان الفيزيائي والنفسي. وهذه الثقافة، بدورها، تزوّدنا بذهنيات وباستراتيجيّات نشاط وأدوات توجّه طاقتنا وتساعدنا على تحقيق أهداف نراها سامية – غالباً ما تتمثّل بتغيير الأمر الواقع. وهكذا تصبح الثقافة عنصراً في إعادة تشكيل الواقع الذي شكّلها.

الثقافة السياسيّة تعالج ناحية مهمّة من الواقع مرتبطة بكيفية تنظيم وحكم أنفسنا على المستوى الجماعي. هي تحدّد أيضاً إلى حدّ كبير ما نفعله بالموارد المتاحة لنا، كيفية تنظيم العلاقات بين الجماعة والحكّام، بين الفرد والجماعة، وبين الجماعات والأفراد أنفسهم... الثقافة السياسيّة تحدّد كيف نفهم ونتعاطى مع الواقع السياسي وآلياته المختلفة، وهي أيضاً تحدّد الإطار الذي تنبثق منه الاستراتيجيّات والتحرّكات التي نقوم بها حين نسعى لتحقيق تغيير ما.

في الماضي، الثقافة السياسيّة السليمة هي الثقافة التي كان يمكن من خلالها لعدد كبير من الناس فهم شكل الحكومة، الآليات السياسية، الوسائل السياسيّة ودورها (كالأحزاب، مجموعات الضغط، الكتل الناخبة...ألخ)، أشكال الضغط السياسي (كالانتخابات، الضغط، الترويج، العرائض، التظاهرات...ألخ)، وآليات تحضير، صناعة وتنفيذ السياسات العامة والقوانين. من المهم أن ننتبه إلى أن هذه الثقافة السياسية التقليدية ترتكز على عدد من الافتراضات السياسيّة المسبقة التي نسلّم بصحّتها المطلقة ومنها:

- الافتراض: النموّ الاقتصادي المستمرّ واللانهائي هو أمر لا يمكن التشكيك به، وهو الهدف أسمى لكلّ السياسات العامة وللاقتصاد بأكمله (الهدف الرئيسي لمعظم حكومات في العالم هو تحقيق نموّ اقتصادي – والهدف للحكومات الباقية هو البقاء في السلطة فحسب). المشكلة: النموّ قتل الكوكب وكافة الفصائل الحيّة وسحق روح الإنسان بكل ما للكلمة من معنى، كما أننا اليوم نعيش النهاية النهائية للنموّ الاقتصادي والسقوط البطيء للرأسماليّة الصناعية بأكملها.
- الافتراض: الحكومات تمتلك قدرات قانونية، مالية، اقتصادية، سياسية وعسكرية هائلة، ما يجعلها مسؤولة عن تحقيق العدالة الاجتماعية. المشكلة: الحكومات اليوم هي أجساد فارغة في معظم الوقت، قادرة على القمع فقط لكن غير قادرة على تحقيق العدالة الاجتماعيّة أو تغيير مجرى الانهيار الكبير.
- الافتراض: الدول-الأمم هي الشكل الرئيسي للتنظيم السياسي الدولي في العالم وهنالك حدود سياسيّة واضحة ولا يمكن تجاوزها بين دولة وأخرى. المشكلة: الحدود لم تكن موجودة يوماً.
- المسلّمة: السياسة تقود وترسم مسار الاقتصاد والمال. المشكلة: المال يرسم مسار كل شيء في السياسة (تقريباً).

- الافتراض: حكم القانون هو التعبير الأسمى للسياسة وهو ضمانة حقوق الإنسان. المشكلة: بنود على ورق لا تضمن شيئاً في عصر الانهيار، كما أن القانون غالباً ما يخدم الأقوى لا العكس.
- الافتراض: هنالك حدّ أدنى من مجتمع مدني عقلاني ومطّلع لديه رأي عام يقوم بقرارات محسوبة متعلّقة بمستقبله. المشكلة: هذه الفكرة بأكملها مجرّد سراب وغير مرتكزة لا على الوقائع العلمية ولا على التاريخ.
- الافتراض: أي مشكلة سياسية أو اقتصاديّة يمكن حلّها عبر تغيير الحكومة أو تغيير النظام السياسي. المشكلة: لا يوجد حكومة أو نظام سياسي في العالم قادرة على تغيير قوانين الفيزياء وإيقاف الانهيار البطيء للرأسمالية الصناعية وما يترتّب على ذلك من نتائج.
- الافتراض: يمكن تغيير السياسات العامّة عبر الوسائل السياسيّة التقليدية كالضغط السياسي، الإعلام، الانتخابات، التظاهرات، والعصيان المدني. المشكلة: هذه الوسائل تعجز اليوم عن إجبار الحكومات حتى على العدول عن شقّ طريق وسط غابة نائية أو تغيير مادة واحدة في قانون مغمور، فكيف بالأمور الأكبر؟
- أخ... أخ...أخ

كل هذه الافتراضات التي نعتقد حكماً أنها صحيحة لدرجة أننا نادراً ما نناقشها ربّما كانت صحيحة في نقطة ما من الزمن في الماضي، لكنها اليوم مجرّد مجموعة من الكلمات الفارغة ولا تعبّر كثيراً عن الواقع. الرأسمالية الصناعية تتداعى تحت وطأة الأزمات الإيكولوجية والطاقويّة، والنموّ الدائم إلى الأمام ولّى إلى غير رجعة، ومن المرجّح أن الانكماش الاقتصادي المستمرّ وغير القابل للعكس سيكون هو واقعنا الاقتصادي لفترة طويلة جداً.

الحكومات هي أجساد ميتة وعاجزة عن معالجة معظم معضلاتنا البيئية والاقتصادية والطاقوية. الدول-الأمم تنتمي إلى متاحف التاريخ بعدما حوّلتها تكنولوجيا الاتصالات، الهجرة الجماعيّة، والتبادل الثقافي إلى مزحات سمجة. القوانين لا طائل منها على الإطلاق، وهي أداة بيد الأقوياء والأغنياء، لا فقط في العالم الثالث بل في أكثر العواصم الغربيّة تقدّماً أيضاً.

المجتمع المدني هو مجرّد ظلّ هزيل لما كان عليه في الماضي، ويتم استبداله الآن بانتماءات أكثر فطرية كالدين، الإثنية، العائلات، العصابات، المجموعات المالية المغلقة، والعشائر والمناطق. حتى أن تعريف المجتمع نفسه بات فارغاً من المعنى: نحن اليوم لسنا مجتمعاً، بل نحن شبكات هائلة من الأفراد المعزولين يشكّل فيها الاكتئاب واللامبالاة الظاهرتان السياسيتان الأكثر شيوعاً. الاقتصاد انفصل عن العمليّة السياسية منذ زمن طويل، والمال انفصل عن الاثنين ويقودهما كلاهما من خلف الستار.

حكم القانون، النموّ الاقتصادي، العدالة الاجتماعيّة، والمساواة الاقتصادية هي كلّها اليوم مجرّد سراب في عالم وصل إلى حدود النموّ ولا يستطيع الاستمرار في السير إلى ما لا نهاية بنفس الطريقة مهما تنوّعت القرارات السياسيّة والاقتصاديّة المقبلة.

*

كل هذه العوامل بدّلت شكل المشهد السياسي بشكل جذري ونحن حتى الآن لم نستطع هضم هذه التغيّرات الهائلة والسريعة التي تحصل حولنا. لكن العديدون منّا، رغم فهمهم لهذه المتغيّرات، لا يزالون يفكّرون ويعملون وفقاً للثقافة السياسية القديمة العقيمة التي تناسب عالم الأمس – لا عالم اليوم.

لذلك نحن نحتاج لنقلة نوعيّة في ثقافتنا السياسيّة ككل. ليس كافياً بعد اليوم أن نحسّن أدائنا في النشاطات التقليدية، وليس كافياً بعد اليوم أن نحسّن فعاليّتنا في استخدام وسيلة اتصالات أو إعلام، وليس كافياً بعد اليوم أن نخترع أنواعاً جديدة من التحرّكات المسرحيّة ضمن نفس التكتيكات العقيمة وضمن نفس الثقافة السياسيّة البائدة.

علينا بناء ثقافة سياسيّة جديدة بالكامل؛ ثقافة تستطيع تغذية وتعزيز أساليب جديدة وفعّالة في التفكير والفعل. لا يمكن تخيّل ثقافة سياسيّة كاملة في كتيّب صغير، ولا يمكن بناء هكذا ثقافة من الصفر في يوم واحد؛ الثقافة السياسيّة هي عمليّة طويلة من التجربة والخطأ والتعلّم والجهود الرامية. في جميع الأحوال، نستطيع أن نحدّد بعض الخصائص التي يمكن أن تكون مفيدة جداً لثقافة سياسيّة صاعدة تهدف فعلاً لتحقيق التغيير.

ثقافة سياسيّة ديناميّة للقرن الـ 21 هي:

- **ثقافة تمتلك ترسانة سياسيّة جريئة وبراغماتيّة :**نحن نحتاج لثقافة سياسيّة نستطيع من خلالها التفكير والعمل بطريقة استراتيجيّة وواقعيّة في الوقت نفسه. بدلاً عن ثقافة عالقة في نفس التكتيكات العقيمة القديمة، نحن نحتاج لثقافة سياسيّة تمتلك الشجاعة والقدرة على القيام بتحرّكات جريئة وفعّالة، وعليها أن تكون في الوقت نفسه قادرة على تجاوز وتحسين طرقها باستمرار لتحقيق أهدافها.
- **ثقافة متعدّدة الأبعاد** ترتكز على أكثر بكثير من السياسة الصرف؛ البعض يمكن أن يطلق عليها اسم **ثقافة النهضة** .بهدف فهم العالم اليوم وبناء ردود حقيقيّة على المعضلات التي تواجهنا، نحن نحتاج لفهم متعمّق لأبعاد الإيكولوجيا والبيئة، السوسيولوجيا، الاقتصاد، الروحانيّة، البيولوجيا، علم النفس، العلوم الطبيعية، الأنتروبولوجيا، وغيرها. بالمختصر، نحن نحتاج لثقافة شاملة ومتكاملة تستطيع أن تقدّم رؤى متكاملة تساهم في رسم معالم المستقبل بكافة أوجهه.

- **ثقافة رؤيويّة** :بما أننا بحاجة إلى طرق جديدة في التفكير، الفعل والوجود في العالم، نحن نحتاج بالفعل لثقافة سياسيّة استثنائيّة – نحن بحاجة لثقافة رؤيويّة. لكن علينا أن ننتبه في الوقت نفسه إلى عدم الوقوع في فخ الرؤى اليوتوبية أو العقائد الجامدة.
- **ثقافة ملائمة لعالم ما بعد الرأسمالية الصناعية \ عالم ما بعد انهيار الحضارة** .عالم الغد هو عالم قد تكون فيه نسب نموّ الاقتصاد، الكهرباء، المدن الكبرى، القوانين، وحقوق الإنسان كلمات تقتصر على كتب التاريخ. نحن نحتاج لثقافة تفهم السقوط البطيء للحضارة الصناعية. نحن نحتاج لثقافة يمكن أن تستنبط أساليب جديدة للتحوّل والتكيّف مع واقع التراجع الحضاري. على هذه الثقافة أن تدرك أن مسؤوليتها هو ألا تنزلق البشرية إلى عصور مظلمة حين تنقطع الكهرباء.
- **ثقافة مرتكزة على مقاربة منهجيّة للسيستيم ككل** .يجب أن ننتهي من الحلول الجزئية، التغيّرات الفردية، انتظار القيامات الجماهيرية التي لن تأتي، البرامج المؤقتة والرؤى المجتزأة. حان الوقت لفهم ومقاومة السيستيم ككل.
- **ثقافة تؤمن بتحقيق التغيير بشكل مباشر بدل توسّله من السلطات والشركات** .علينا أن نتوقّف عن توقّع الخير من هكذا مؤسّسات مرتكزة أساساً على السلطوية، الربح، والقمع. لا يمكننا أن ننتظر التغيير بعد اليوم من السياسيّين ومديرو الشركات؛ **من يستفيد من قتل العالم لن يقوم بانقاذ العالم** .علينا في الواقع أن ننقذ العالم من هؤلاء تحديداً. علينا أن نبدأ بالمقاومة والتحوّل بأنفسنا من دون انتظار أحد ولا سيّما السلطات.
- **ثقافة لا تمجّد اللاعنف أو العنف على أساس أيدولوجي** بل تقيّمها كاستراتيجيات نشاط يمكن تطبيقها وفقاً للسياق والمكان والزمان.
- **ثقافة منفتحة تستوعب جميع الناس في عمليّة التغيير** ولا تحوّل النضال السياسي إلى مهنة أو إلى دور اجتماعي متخصّص، ولا تبني حدوداً وهمية بين الناشطين وغير الناشطين.
- **ثقافة متوازنة**، يمكن أن توازن بين إنشاء القادة ودعمهم وبين رفض السلطوية، بين تنظيم الجماعات بشكل استراتيجي وبين إعطاء المساحة للجميع للعمل وفقاً لوتيرتهم وتفضيلاتهم الخاصة في الوقت نفسه.
- **ثقافة تقدّر العلاقات البشرية** والمجتمع بدلاً عن التكنولوجيا.
- **ثقافة لا تخاف من البعد الروحي** وتدرك أهميته في إنشاء طرق جديدة للوجود والعيش والفعل في هذا العالم.

الأهم من كل ذلك: **نحن نحتاج لثقافة تكون أساس حياة جديدة**، لا ثقافة تدور حول أمور جزئية كالقوانين وأسماء الرؤساء. نحن نحتاج لثقافة شجاعة لا تخاف من أن تكون على الجانب غير المقبول سياسياً في زمن أصبح فيه الموقف السياسي المقبول مساوٍ للخنوع الدائم في وجه السلطات. نحن نحتاج لثقافة جريئة كفاية لتسمية الأسماء وخوض المعارك حتى النهاية. نحن نحتاج لثقافة تركّز على الدفاع عن الحياة وإنقاذ المستقبل، وليس على المقاعد النيابيّة، على تحقيق خمس دقائق من الشهرة على التلفزيون، أو اكتساب آلاف المعجبين على فايسبوك.

نحن نحتاج لثقافة صريحة تمتلك شجاعة القول بأن الرأسمالية وحضارتها هي عملية قتل ممنهج للإنسان والكوكب كان يجب وضع حدّ لها في الأمس، لا اليوم فقط. نحن نحتاج لثقافة تمتلك شجاعة الاعتراف بأن عالمنا يتغيّر بشكل جذري وبأن الحضارة الصناعية دخلت في آخر مراحل الانهيار. نحن نحتاج لثقافة تستطيع التصرّف وفقاً لهذه الحقائق بدل البقاء في حالة نكران. نحتاج لثقافة تدمج التفكير الاستراتيجي البارد مع الشجاعة العنيدة الحارّة. نحن نحتاج لثقافة تهدف لربح الصراعات، لا لإسماع صوتها فحسب.

يكفي ضجيج، إننا نحتاج لثقافة تفعل، لا ثقافة تعتقد أن الصراخ هو فعل سياسيّ. حان الوقت لإيقاف عمليّة الدوران حول أنفسنا في حلقات مفرغة والبدء بتحقيق تحوّل حقيقي على الأرض.

نحن نحتاج لثقافة مقاومة.

حان وقت إيقاف تحديث ستاتوساتنا على فايسبوك وتويتر، والبدء بالمقاومة السياسيّة المنظّمة!

* * *

[انتهى الكتاب]

المراجع

[1] John Michael Greer, Producing Democracy, The ArchDruid Report, URL accessed on 18/1/2013: http://thearchdruidreport.blogspot.com/2012/12/last-weeks-post-here-on-archdruidreport.html

[2] Ajay Shah, Why protests don't end up in change: We need more wonks, First Post, Jan 4, 2013, URL accessed on 18/1/2013: http://www.firstpost.com/blogs/why-protests-dont-end-up-in-change-we-need-more-wonks-578450.html

[3] Check: www.350.org/en/node/3108, URL accessed on 10/1/2013.

[4] Colin O, Occupy is Dead, now What?, URL accessed on 18/1/2013: http://rocredandblack.org/occupy-is-dead-now-what/

[5] Derrick Jensen, as quoted by Chris Hedges in "The Cancer in Occupy", URL accessed on 18/1/2013 http://www.truthdig.com/report/item/the_cancer_of_occupy_20120206/

[6] Hit where it hurts, Ted Kaczynski, URL accessed on 18/1/2013 http://theanarchistlibrary.org/library/ted-kaczynski-hit-where-it-hurts

[7] DDOS Attack Myths: Does Size Really Matter?, *Ron Meyran*, *February 6, 2012*, URL accessed on 18/1/2013: http://blog.radware.com/security/2012/02/ddos-attacks-myths/

[8] *Time* magazine, "The 100 Most Influential People In The World" April 18, 2012.

[9] Anonymous and the war over the Internet, Part II, Saki Knafo, 01/31/12, Huffington Post. URL accessed on 18/1/2013: http://www.huffingtonpost.com/2012/01/31/anonymous-war-over-internet_n_1237058.html

[10] Aditya Chakrabortty, Occupy is one year old. The critics are wrong to say there's little to celebrate, The Guardian, Monday 17 September 2012, URL accessed on 18/1/2013: http://www.guardian.co.uk/commentisfree/2012/sep/17/occupy-year-old-critics-wrong

[11] Marina Sitrin, Horizontalism and the Occupy Movements, Dissent Magazine, Spring 2012. URL accessed on 18/1/2013: **http://www.dissentmagazine.org/article/horizontalism-and-the-occupy-movements**

[12] Sitrin, Horizontalism and the Occupy Movements, IBID.

[13] ACME Collective, *A communique from one section of the black bloc of N30 in Seattle*, 1999. URL accessed on 18/1/2013: http://theanarchistlibrary.org/library/acme-collective-n30-black-bloc-communique

[14] Anarchists plan 'militant' protests to 'humiliate the security apparatus' at G20, URL accessed on 18/1/2013: http://news.infoshop.org/article.php?story=20100521045208709

[15] Vandalism a central part of anarchists' tactics, Patrick White , Toronto — The Globe and Mail , Thursday, Aug. 23 2012, URL accessed on 18/1/2013: http://m.theglobeandmail.com/news/world/g8-g20/news/vandalism-a-central-part-of-anarchists-tactics/article1620949/?service=mobile

[16] John Zerzan, as quoted by Brendan Kiley, in Why All the Smashy-Smashy? A Beginner's Guide to Targeted Property Destruction, May 2, 2012, Slog News. URL accessed on 18/1/2013: http://slog.thestranger.com/slog/archives/2012/05/02/why-all-the-smashy-smashy-a-beginners-guide-to-targeted-property-destruction

[17] From the official website of 350.org – one of the biggest mainstream environmental movements leading the climate change campaign. URL accessed on 18/1/2013.

[18] Idle No More: Hints of a Global Super-Movement, Jacob Devaney, URL accessed on 18/1/2013: http://www.huffingtonpost.com/jacob-devaney/idle-no-more-the-beauty-o_b_2393053.html

[19] As quoted by *Peter Van Aelst*, and Stefaan *Walgrave*, New Media, New Movements? The Role of the Internet in Shaping the 'Anti-Globalization' Movement, 2002, page 469.

[20] Manuel Castells, Communication, power and counter-power in the network society, *International Journal of Communication,*1, 2007, page 13.

[21] Michelle O'Brien, *New forms of activism in a Network Society*, PDF version, January 2012

[22] O'Brien, *New forms of activism in a Network Society, IBID.*

[23] See: Evgeny Morozov, The Net Delusion: The Dark Side of Internet Freedom, PublicAffairs, 2011.

[24] Morozov, The Net Delusion, OPCIT.

[25] As quoted by Gaffney, #iranElection: quantifying online activism, *Journal of Web Science*, 1, 1 – 8, 2011.

[26] Malcolm Gladwell, Small Change: Why the revolution will not be tweeted,

The New Yorker, October 4, 2010, URL accessed on 18/1/2013.

[27] *Andrew X, Give Up Activism:* a critique of the activist mentality in the direct action movement", 1999, p 3.

[28] Andrew X, Give up Activism, OPCIT, p 4.

[29] هاني نعيم، كيف يؤثّر الإعلام الاجتماعي على القضايا الحيّة في لبنان؟ مدوّنة هنيبعل يتسكع في الأرجاء، منشور بتاريخ.http://hanibaael.wordpress.com/2012/05/02/arabic

[30] Andrew X, Give up activism, OPCIT.
[31] **The Great Activism Hoax. Why Activism No Longer Works and Has Lost Its Meaning,** Richard Penney April 16, 2012 **,** URL accessed on 18/1/2013 http://blacksheepreport.com/the-great-activism-hoax-why-activism-no-longer-works-and-has-lost-its-meaning/

[32] Andrew X, Give up activism, OPCIT, page 8.
[33] Andrew X, Give up activism, OPCIT, page 11.

[34] Jo Freeman, The Tyranny of Structurelessness, URL accessed on 18/1/2013 http://www.jofreeman.com/joreen/tyranny.htm

[35] The Fall and Rise of the U.S. Populist Left, By Michael Kazin – Dissent Magazine, Winter 2013, http://www.dissentmagazine.org/article/the-fall-and-rise-of-the-u-s-populist-left

[36] Freeman, The Tyranny of Structurelessness, OPCIT.
[37] Colin O, Occupy is dead, now what?, URL accessed on 10/1/2013 http://rocredandblack.org/occupy-is-dead-now-what/
[38] Nationwide Organization of Revolutionary Anarchists in the United States?", URL accessed on 10/1/2013, http://redandblack.rocus.org/?p=72

[39] Small Change, Malcolm Gladwell, http://www.newyorker.com/reporting/2010/10/04/101004fa_fact_gladwell?currentPage=2)

[40] The New Anarchists, David Graeber, New Left Review 13, January-February 2002 , URL accessed on 10/1/2013, http://newleftreview.org/II/13/david-graeber-the-new-anarchists

[41] Classic Activism, Thwink.org, URL accessed on 10/1/2013**,** http://www.thwink.org/sustain/glossary/ClassicActivism.htm
[42] Derrick Jensen, as quoted by Chris Hedges in "The Cancer in Occupy", OPCIT.

[43] See: John Michael Greer, ***The Long Descent: A User's Guide to the End of the Industrial Age***, New Society Publishers (2008), and James Howard kunstler, ***The Long Emergency: Surviving the Converging Catastrophes of the Twenty-first***

Century, Grove/Atlantic (2005), and Richard Heinberg, ***The Party's Over: Oil, War and the Fate of Industrial Societies***, New Society Publishers (2003).

[44] See: Ted Trainer, Renewable Energy cannot sustain a consumer society, Springer Publishing, Amsterdam, 2007.

[45] From the Venus Project Website, URL accessed on 10/1/2013**,** http://thevenusproject.com:8080/en/the-venus-project/faq

[46] See: Jeremy Rifkin, ***The End of Work: The Decline of the Global Labor Force and the Dawn of the Post-Market Era,*** Putnam Publishing Group, 1995.

[47] The Victory of the Counter-Revolution in Vienna, by Karl Marx, *Neue Rheinische Zeitung No. 136*, Translated by the Marx-Engels Institute, URL accessed on 10/1/2013, http://www.marxists.org/archive/marx/works/1848/11/06.htm

[48] See for example: *Waging Nonviolent Struggle: 20th Century Practice and 21st Century Potential* with Joshua Paulson, Extending Horizons Books, 2005.

[49] Chris Hedges, The Cancer in Occupy, OPCIT.

[50] David Graeber, Concerning the Violent Peace-Police, An Open Letter to Chris Hedges, URL accessed on 10/1/2013**,** http://nplusonemag.com/concerning-the-violent-peace-police

[51] Chris Hedges, The Cancer in Occupy, OPCIT.

[52] Dear Occupiers, *A letter from anarchists,* Oct 7th, 2011, URL accessed on 19/1/2013, http://news.infoshop.org/article.php?story=20111008102217423

[53] Concerning the Violent Peace-Police, An Open Letter to Chris Hedges, David Graeber, URL accessed on 19/1/2013**,** http://nplusonemag.com/concerning-the-violent-peace-police

[54] Quoted by Alain Gresh, The Dream of a Better World Is Back by, *Le Monde Diplomatique*, May 8, 2009, URL accessed on 19/1/2013**,** http://www.middle-east-online.com/english/?id=31942

[55] Occupy Tactics: Violence and Legitimacy in the Occupy Movement and Beyond, Crimethinc website, URL accessed on 19/1/2013, http://www.crimethinc.com/blog/2012/09/17/post-debate-debrief-video-and-libretto/

[56] Brendan Kiley, Why All the Smashy-Smashy? A Beginner's Guide to Targeted Property Destruction, OPCIT.

[57] See Daniel Quinn, Ishmael: An Adventure of the Mind and Spirit, Bantam/Turner Books, 1992.